مع أشجان الروح

نوافذ الإقدام ومواطئ قدم بين الأقدام

معالم عبودية حركية راشدة

تأليف

د. عبد المجيد البيانوني

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 1429هـ

يطلب من المؤلف
البريد الضوئيّ
aalbyani@gmail.com

الإهداءُ

إلى روح العَالـِمِ الداعية العَلَم.. الذي وهب حياته لدعوة الحقّ منذ نعومة أظفاره، وعاش لها في ليله ونهاره، وسرّائه وضرّائه.. وقيل عنه بحقّ: تاج العلماء..

وكان شيخ الشباب وقائد الرجال.. نبغ صغيراً.. واخترمته يد المنيّة كهلاً..

عاش غريباً.. ومات غريباً.. وكان بحقّ مُعَلّماً مُلهَماً ومُلهِماً.. تعلّمتُ منه في الدعوة والحياة دروساً..

أهدي إليه هذا الكتاب بعضاً من حقّه عليّ ووفاءً.. ولأنّي استلهمت كثيراً من أفكاره من حياته.. وأسأل الله تعالى أن يتغمّده بواسع رحمته..

سأذكرُ مَا حَييتُ حبالَ وُدّ
وهل تُنسَى عُهُودُكَ وَالوَفاءُ
رِياضٌ أو ظِلالٌ في هَجير
ومِن سَلسَالها عَذبٌ صَفاءُ
سَأرعَاها وَأحدُوها بِقَلبٍ
أبيّ لا يُنغّصُــه جَفـَـاءُ
إلى حِين اللقا في ظِلّ عَرشٍ
وَعندَ الله يَعلُو الأوفِيـاءُ

وإلى كلّ من يحمل همّ الإسلام، ويحيا لأجله.. أهدي هذا الكتاب نصحاً وذكرى.

المؤلّف

هَذِهِ النوافذُ

نوافذ ثمان أشـــبه بأبواب الجنّة الثمانية.. التي ربّما دعي المؤمن ذو الهمّة العالية منها كلّها، كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُــولَ الله ﷺ قَالَ: (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَــبِيلِ الله نُودِيَ فِي الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ الله هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّــلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّــدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّــدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ: يَا رَسُــولَ الله مَــا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، **فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا** ؟ قَالَ رَسُــولُ الله ﷺ: (**نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**) [1].

1 ـ النافذة الأولى: نافذة الإرادة والهمّة.

2 ـ النافذة الثانية: نافذة العلم والحكمة.

3 ـ النافذة الثالثة: نافذة العمل.

4 ـ النافذة الرابعة: نافذة التغيير.

---

(1) . رواه البخاريّ في كتاب الصيام برقم / 1764/ ومسلم في كتاب الزكاة برقم / 1705/ وغيرهما.

5 ـ النافذة الخامسة: نافذة التميّز.

6 ـ النافذة السادسة: نافذة التحدّي.

7 ـ النافذة السابعة: نافذة الصبر واليقين.

8 ـ النافذة الثامنة: نافذة الآثار.

إنّها نوافذ السموّ الدعويّ، ومأدبة العبوديّة الصادقة، ومفاصل الحيويّة الإيمانيّة، الحركيّة المتألّقة..

إنّها نماذجُ لنوافذ الخير التي تطلّ بك على أبواب الجنان، وتفتحها لك بإذن الله .. وتسرّ إليك أنّ نوافذَ الخير ما أكثرها.!

إنّها نوافذُ إيمانيّة حركيّة، تنطلق من النفس، ويتعدّى خيْرُها النفس، إحياء للمنهج الربّانيّ، ليكون لها منْ نفع الآخرين منهج حياة، لا تكلّ عنه ولا تحيد..

إنّها نوافذُ الأهداف الشريفة، التي تجعلُ لكلّ لحظةٍ مِن لَحَظَاتِ الحياة قيمةً عليا، تقدّر بجنّة عرضها السموات والأرض..

إنّها إشَارات موجزة، لا يتّسع الوقت والمقام إلى التوسّع في تفصيلها.. تدعوك إلى أن تأخذ بها، وتتعمّق في فهمِها، وتجمع إليها أمثالها.. وما أكثرها.!

إنّها ملامح الرجال الذين نريدهم ؛ الماضين على الطريق بكلّ جدّ، لا يصدّهم عن نصرة الحقّ والجهاد في سبيله شيء، يحملون الأمانةَ، ويبلّغون الرسالة، ويصنعون لهذه الأمّة المكلومة المنكوبة غدها المشرق بإذن الله..

قد وضعوا نصب أعينهم هذا المثل المؤثّر الذي ضربه فيلسوف الإسلام محمّد إقبال رحمه الله [2]، وفيه عظة بالغة، وعبرة موقظة:

لَحظةً يا صَاحِبي إن تَغفُلِ ألفَ مِيل زَادَ بُعدُ المَنزِلِ
رَامَ نَقشَ الشَّوكِ يَوماً رَجُلُ فَاختَفَى عَن نَاظِرَيه المَحمَلُ

هذا من غفل لحظة، فكيف بمن يقظته إنّما هي لحظات عابرة من مدى عمره.؟ وما سواها غفلات متوالية، وضياع للعمر بغير حساب، فكيف يصحّ له سير، أو يرقى له حال، فانظر أين مواقع أقدامك في هذا الطريق.؟

فاحرصْ على أن تكون نوافذ خيرك مفتوحَةً دائماً، ولا تستغرقْ جهدك ووقتك في نافذة واحدة، وتنسَ النوافذ الأُخرى التي تنتظرك، تقتل نفسَك وهمّتَكَ.. وربّما شغلتَ نفسَك بالمفضول عن الفاضل، أو حبست نفسك عن آفاق رحبة، لا يدانيها شيء ممّا أنت فيه.. وتلك من عللنا النفسيّة والاجتماعيّة المُزمنة [3].

---

(2) - انظر مجموعة الأعمال الكاملة لإقبال 1/ 226، ديوان الرموز والأسرار.

(3) - أصل هذه الرسالة محاضرة طُلب من الكاتب إلقاؤها في ثُلّة مختارة من الإخوة الكرام، الذين التقاهم لأوّل مرّة وآخر مرّة، ممّن طابت سيرتهم، وزكت سرائرهم، كما زكّاهم له من يعرفهم، وتنوّعت أعمالهم واهتماماتهم، فمنهم الطالب، والموظّف والتاجر، وصاحب المهنة، والتخصّص العلميّ.. ولم يعرف مستواهم العلميّ والفكريّ، ولكنّهم يجمعهم الاهتمام بالدعوة، والغيرة على دين الله.. ففتح الله جلّ وعلا عليه بهذه المعاني، التي هي أرزاقهم ساقها الله تعالى إليهم، فلقيت منهم قبولاً واستجابة، وقد أعقبها أسئلة، أثرت

* ـ العلاقة بين هذه النوافذ: وتتجلّى العلاقة بين هذه النوافذ في جانبين مهمّين:

ـ الأوّل: أنّه لا يمكنُ فتْحُ نافذة قبل إحكام العمل بما قبلها.. وبخاصّة النافذة الأولى: نافذة الإرادة والهمّة، فهي بحقّ نافذة النوافذ، يمكن أن تضاف إليها أيّة نافذة.. ولا تكون هي تبعاً لما سواها.. ولن يفلح من يمشي معكوساً أو منكوساً، فهو لن ينتفع بجهد، ولن يبلغ غاية.. فأحكم خطوات سيرك، وامض نحو غايتك قدماً، مستعيناً بالله، عليه متوكّلاً..

ـ والثاني: أنّ كلّ واحدة من هذه النوافذ زاد لما بعدها، ورصيد لها.. وعندمَا يقف الإنسان عند أيّة عقبة من عقبات بعضها ترتدّ نفسه بصورة لا شعوريّة إلى ما قبلها، تستمدّ منها العون والتأييد.. ثمّ تتابع طريقها..

الموضوع وأغنته، وقد أضفت الإجابة عنها إلى الأصل، فالحمد لله على توفيقه وفتحه، وأسأل الله جلّ وعلا أن يعمّ النفع بها.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمات مضيئة

يقول الفضيل بن عياضٍ رحمه الله: " والله ما صدق في عبوديّته من لأحدٍ من المخلوقين عليه ربّانيّة ". ولنا أن نعمّم أكثر فنقول: " من لشيء عليه من الخلق ربّانيّة ".

ومن أقوال السلف: (الحرّية حرّية القلب، والعبودّية عبودّية القلب).

الرقيق الأسير أسير شهوته الأثيمة، ولو عاش في رحاب القصر الأبيض، في حماية القوّة الحصينة.. **والحرّ حرّ** الروح والقلب، ولو أنزلوه من رحاب القصور إلى ظلمات الزنازين الدفينة.. وهل فلّ عزائم الأخيار حصار الشعب أو فتنة الضرار.؟! إنّه كيوسف الصدّيق عليه السلام، الذي آثر حريّة قلبه وروحه، على شهوة نفسه، ورقّ قلبه..

وما أبلغ كلمة الإمام ابن تيمية رحمه الله وما أعظمها من حكمة: (المحبوس من حُبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه). و " من أراد السعادة الأبديّة فليلزم عتبة العبوديّة ".

وقال بعض الصالحين: " مَن بُورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن مِن مِنَنِ الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارةِ، ولا تلحقه الإشارة ".

" ربّ عُمُر اتّسعت آماده، وقلّت أمداده، وربّ عُمُر قليلةٌ آمادُه، كثيرةٌ أمدادُه ".

" الخذلان كلّ الخذلان أن تتفرّغ من الشواغل، ثمّ لا تتوجّه إليه، وتقلّ عوائقك ثمّ لا ترحل إليه ".

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

﴿.. رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ الكهف.

﴿.. رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ البقرة.

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ الأعراف.

الحمد لله مُعزّ الإسلام بنصره، ومُذلّ الشركِ بقهره، ومُصرّف الأمور بأمره، ومُديم النعم بشكره، ومُستدْرج الكافرين بمَكره، الذي قدّر الأيّام دولاً بعَدله، وجعل العاقبة للمتّقين بفضْله، وأفاءَ على عباده من ظلّه، وأظهر دينه على الدين كلّه، القاهر فوقَ عباده فلا يُمانَع، والظاهر على خليقته فلا يُنازع، والآمر بما يَشاءُ فلا يُراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع [4]، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا

---

(4) هذه مقدّمة الخطبة التي ألقاها أوّل جمعة بعد افتتاح بيت المقدس أبو المعالي محيي الدين محمّد بن أبي الحسن علي بن محمّد القرشيّ المعروف بابن الزكيّ الفقيه الشافعيّ، قاضي القضاة، يتّصل نسبه بعثمان بن عفّان ﷺ، ولد بدمشق سنة 550 هـ وتوفّي سنة 598 هـ، ودفن بسفح جبل قاسيون، وقد ذكرت هذه المقدّمة هنا تيمّناً وتفاؤلاً بنصر من الله قريب، على بغاة اليهود ومن يساندهم من قوى الإجرام والإفساد في الأرض، ويقولون: متى هو ؟ قل: عسى أن يكون قريباً، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ الإسراء. والصلاة والسلام على سيّد ولد آدم، وخاتم الأنبياء والمرسلين، سيّدنا محمّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد ؛ فإنّ بناء الإنسان هو حجر الزاوية في كلّ نهضة.. وبناء الإنسان لا يقف عند حدّ، ولا يقيّد بزمن، لأنّ أجيال الناس تتواصل وتتداخل، والحياة تمور بالمتغيّرات، التي تتطلّب رؤىً متجدّدة، ومواقف جديدة، وتطويراً في الأساليب والوسائل يتناسب مع شرف الغاية، وسموّ الأهداف..

وإنّ العمل الدعويّ يعدّ قمّة نشاط المؤمن، بعد الإيمان والأخذ بالعلم، وفقه دين الله، والالتزام بمقتضاه من العمل.. فالحمد لله الذي لم يجعلنا في حيرة من أمرنا، ولبسٍ في ديننا، وقلقٍ يجتاح ضمائرنا وأرواحنا، فتضلّ عن منهجها وسبيلها، لا تدري لها مبدأً، ولا تعرف لها مصيراً، ويكون حالنا أشبه بحال ذلك الحنيفيّ في الجاهليّة، عمرو بن نفيل الخزاعيّ، الذي كان يجلس أمام الكعبة المشرّفة، يتأمّلها ويناجي ربّه، وقد عرفه ووحّده بفطرته، ثمّ يرفع بيده حفنة من تراب الأرض، فيسجد بجبينه عليها، ويقول، والحسرة تأكل فؤاده: **" اللهمّ إنّي لو أعلم أحبّ الوجوه إليك لعبدتك به، ولكنّي لا أعلمه.! "**.

أيّها الإخوة الأحبّة ! بم أريد أن أتحدّث إليكم ؟! وما يثير اهتمامي قد لا يكون مثيراً لاهتمامكم، وما قد يُهمّكم الحديثُ عنه لا أعرفه مسبقاً.. وقد لا أتقنه.. فمِن ثمّ يكون حديثي عارياً عمّا أسمّيه: **" فنّ الخطاب "**، أو **" فصل الخطاب "** في هذا المقام، ولكنّي أريد أن أثير اهتمامكم.. وقد أردت أن يكون حديثي إليكم أيّها الأحبّة محاضرة لا كالمحاضرات.. محاضرة هي أشبه بمراجعة النفس ومناجاتها.. هي أشبه بالقراءة في خارطة الوجود الإسلاميّ والإنسانيّ.. وهل كلّ الناس يتقن مثل هذه القراءة، أو يحسنها.؟ القراءة من عالَمِ فضاءٍ محلّق.. يشهد الناسَ يمورون بحركاتهم النفسيّة والاجتماعيّة، متجسّدةً في سلوكٍ متباين، لخّصته الكلمات الربّانيّة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ البقرة، وهناك من يسفك الدم الحرام حسّاً، وهناك من يسفكه معنىً: بإهدار كرامة الإنسان، وتحطيم إرادته وكيانه، وقتل همّته وطموحه، وهناك من يقتل نفسه وينتحر حسّاً أو معنى..

أيّها الإخوة الأحبّة ! هل تستطيعون الخروج عن دنياكم قليلاً.؟ عن الوالد والولد، والدراسة وهمومها، والزوجة والأهل.. والوظيفة والتجارة.. وأخبار الناس ومشكلات الحياة.. لنعود إلى ذواتنا قليلاً.. لنعود إلى دواخلنا.. حاولوا ذلك.. وقفوا معي قليلاً في هذه الساعة للمراجعة..

نحن في زمن السباق المحموم بين بني البشر على أن يحوز **" الإنسان الفرد " كلّ شيء**.. ولا يترك لأحدٍ سواه أيّ شيء.. حتّى ولو **موطئ قدمٍ**..

في عالم المادّة: الكبار يتنافسون على أكل الصغار.. ثمّ أكل مَن هم فوق الصغار من المتوسّطين.. ثمّ يصطرعون فيما بينهم.. فيتشظّى بعض الكبار.. على حساب بعض.. ويصير بعضُهم أكبرَ، ويعود بعضُهم صغاراً.. ويخسف بقارون الأرض.. وتعود دورة الحياة من جديد.. **وتمضي دوّامة الصراع تدور حول رحاها**..

ومع هذا السباق المحموم بين بني البشر نريد أن نبحث لنا عن **موطئ قدم** من نوع آخر.. وأن ننظر أين موطئ قدمنا في عالم الدنيا، وعالم الآخرة.؟ وهي التي عليها المعوّل.. ومن فاتته فاته كلّ شيء:

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهمُ

وهذا الدين منهج حياة، يمنح الإنسان السعادة الحقّة، إذ تلتقي فيه الدنيا بالآخرة، في تقارب وامتزاجٍ ما عرفته البشريّة في تاريخها الطويل إلاّ على يد أنبياء الله ورسله، ومن سار على نهجهم.. ولكن بشرط واحد، هو أن تخلص النيّة وتصفو، وتتَجرّد عن الدنيا بأهوائها وشهواتها، والوقوف عند حظوظها العاجلة..

إنّ من العلل التي لا ينتبه إليها كثير منّا: أنّنا كثيراً ما نعظّم أعمالنا، وما نحن فيه.. ونقلّل من أعمال الآخرين وننتقصها.. ونفكّر في واجب الآخرين، ونلومهم على تقصيرهم، ولا نفكّر في واجبنا أو حقّهم علينا.. نفكّر في الآخرين أنّ عليهم أن يثقوا بنا، ويعطونا المكانة اللائقة بنا، ولا نُفكّر في واجبنا.. أنّ علينا أن نرتفع لننتزعَ ثقةَ الآخرين بنا، فالثقةُ طمأنينة قلب، وارتياح نفس، لا تفرض بقانون القوّة.. وإنما تملك مودّة القلب، ومنطق الروح، وإخلاص النصح..

إنّنا نغفل عن أنّ البطانةَ الصالحةَ لسليمان بن عبد الملك، التي مثّلها ذلك الرجلُ الناصحُ الأمينُ، العَلَمُ المغمورُ، رجاءُ بن حَيوة [5]، كان من ورائها استخلاف عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وما كان على يديه من نفع عظيم لأمّة الإسلام إلى يوم الدين.

إنّ الرجل الكفء ليس بحاجة أن يشير إلى نفسه.. إنّ الدنيا كلّها تشير إليه بالبنان، أن يُختار، ويكون في موضع صنع القرار، أو التأثير في القرار.. إنّه يفرض نفسه، وينتزع الثقة حتّى من أعدائه، على رغم أساليب الزيف والدجل، وطمس الحقائق وتغييبها، فهل لنا أن نفقه هذه الحقيقة المطّردة، فنعمل على إعداد أنفسنا، وإعداد الرجال الأكفاء، أو التأثير في ميولهم واتّجاهاتهم.؟!

---

(5) ورجاء بن حيوة هو أبو المقدام شيخ أهل الشام في عصره، كان من العلماء الفصحاء، والوعّاظ النبلاء، لازم عمر بن عبد العزيز في إمارته وخلافته، انظر الأعلام 17/3/، وحلية الأولياء 170/5/، وتاريخ الخلفاء للسيوطيّ /226/.

ونحن لا ننكر ما للدعاية الكاذبة من تأثير في تزوير الحقائق، وترويج الأباطيل، ووأد العبقريّات، وصنع الأبطال من الأقزام.. ممّا يضاعف أعباء التحدّي، ويوجب المزيد من الجدّ واليقظة.. وأن نعلم أنّ سنّة المدافعة ماضية إلى يوم الدين..

إنّ الإنسان أحوج ما يكون إلى مراجعة نفسه بين الحين والآخر.. والمصارحة بمثل هذه الأحاديث، لأنّ دوّامة اللهاث مع اللاهثين الغارقين في لجّة الحياة في البحر الملح.. لا تدع الإنسان ينسحب قليلاً من بين الجموع، ويتفيّأ ظلال شجرة بعيداً عن الناس، يناجي نفسه وتناجيه.. أو يصفو وقته وقلبه ليناجيه أخ في الله مخلص، صادق في نصحه، مثل صدقه مع نفسه أو أكثر..

إنّ كثيراً من الناس عندما ينظرون بعين البصر، يرون الحياة بهيجة جميلة، فتّانة ساحرة، فيهيمون بها حبّاً، ويلهثون وراءها رَغَباً ورهباً، وربّما رآها آخرون بعين البصر أيضاً كئيبةً مظلمة، مُشقية محزنة.. وذلك على حسب حال الإنسان وظروفه وتقلّباته..

وإذا نظرنا إليها بعين البصيرة رأينا أنّنا في مغارة مُعتمة ظلماء، زواياها أشبه بدائرة.. قد أحاط بنا الظلام من كلّ جانب.. إذا أخرج أحدنا يده لم يكد يراها.. وحولنا في كلّ زاوية من زواياها نافذة مغلقة.. وكلّما فتحنا نافذة تبدّى لنا منها نور يشعّ، فيضيء زاوية من زوايا مغارتنا.. فلنستفتح بعض هذه النوافذ، واحدة تلو الأخرى.. وإنّ صاحب الهمّة العليّة ليستفتح النوافذ كلّها أمامه.. ولنعلم أنّ الفتح بيد الفتّاح سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الفتح، و ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ

مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾

فاطر.

وقبل أن أدلف بكم أيّها الأحبّة إلى غمرات الحديث أحبّ أن أمهّد ببعض المقدّمات، التي تهيّئ النفوس لمعانيه وإشَاراتِه..

*** بين العبوديّة والعبادة:**

كثيراً ما تتردّد على ألسنتنا كلمة: العبوديّة، وكلمة: العبادة، وهما بحقّ مفتاح شخصيّة الإنسان، وشعار حياته ودثارها، ومفرق الطريق بين إنسان الدنيا، وإنسان الآخرة.. ولابدّ لنا من وقفة عند هاتين الكلمتين نتبيّن بها بعض الحقائق..

قال في لسان العرب: " عَبَدَ الله يعبُدُه عِبادة ومعبداً ومعبَدةً تألّه له، ورجل عابد من قوم عبَدةٍ وعُبُدٍ وعُبّد وعبّاد، والتعبّد التنسّك، والعبادة الطاعة أو الطاعة مع الخضوع.. ويقال: فلان عبدٌ بيّن العبودة والعبوديّة والعبديّة، **وأصل العبوديّة: الخضوع مع التذلّل.**

وقال في المعجم الوسيط: " عَبَدَ يعبُد الله عبادة وعبوديّة: انقاد له وخضع وذلّ.. والعبادة: الخضوع للإله على وجه التعظيم، وعبُد يَعبُد عُبوداً وعُبوديّة: مُلِكَ هو وآباؤه مِن قبل ".

وقال الراغب الأصفهانيّ في المفردات: " العبوديّة إظهار التذلّل، والعبادة أبلغ منهَا لأنّها غاية التذلّل، ولا يستحقّها إلاّ من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى ".

وأرى أنّ هذا التفريق لا يعين عليه المعنى اللغويّ المنقول آنفاً، إذ يشير إلى تقارب للمعنيين، ولكنّ زيادة المبنى في " العبوديّة " ترجّح زيادة المعنى على العبادة، وهو ما اتّجهت إليه في المعنى الاصطلاحيّ، والله تعالى أعلم.

ـ وأمّا من حيث المعنى الاصطلاحيّ للعبادة: فقد عرّف الإمام ابن تيمية رحمه الله العبادة تعريفاً جامعاً بقوله: " **العبادة: هي اسم جامع لكلّ ما يحبّه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفّار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم، والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميّين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.. وكذلك حبّ الله ورسوله ﷺ، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكّل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله..** " [6].

وهذا التعريف على وجاهته وشموله يتناول مظاهر العبادة ومفردات أعمالها، ولا يعرّج على وصف حقيقتها، وتحديد معالمها.

وأمّا تعريف العبوديّة من الوجهة النفسيّة: فهي شعور بالعبديّة حاضر، وتلذّذ في الخدمة ظاهر، والجمع بين ألوان من العبادة بما يناسب كلّ وقتٍ ويلائمه، واستغراق للوقت والجهد فيما يحبّ المعبود ويرضى.

---

(6) انظر كتاب العبوديّة ص/28/.

فالفرقُ إذن بين العبوديّة والعبادة: أنّ العبوديّةَ تعبّر عن منهجٍ شُموليّ، والعبادة جزء خاصّ من هذا المنهج، أو هي أهمّ مفرداته.

وهناك نوع من العبوديّة أحبّ أن أسلّط الضوء عليه في هذا الحديث، إنّه: " العبوديّة الحركيّة ".. فماذا أقصد بالعبوديّة الحركيّة.؟ إنّه مصطلح قد يرفضه بعض الناس، لأنّه لم يطرق سمعه من قبل.. وأحبّ أن ألتمسَ له في هذا المقام أصلاً ودليلاً:

فلو نظرنا في حياة النبيّ ﷺ، وهو الأسوة العظمى للمؤمنين، لرأينا أنّه كان يتهجّد بالليل.. ويصلّي بالناس الفجر.. ثمّ يُمضِي الوقت بين علم وتعليم، وتفقّد لأصحابه، وحلّ لمشكلاتهم، ولقاء مع الوفود، ودعوة إلى الله تعالى، وجهاد في سبيله.. ومؤانسة لأهله وملاطفة، ومداعبة للأطفال هادفة، وخدمة خاصّة لنفسه، ولأهل بيته.. وهو في جميع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى ولا يملّ..

فالعبوديّة الحركيّة تجمع بين التمسّك بالحقائق الإيمانيّة والنشاط الحركيّ، الذي يعطي لكلّ موقف حقّه، ولكلّ وقت ما يناسبه، وممّا يعبّر عن ذلك ويشير إليه ما جاء في الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،**

أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ) [7].

وفي حياة الخليفة الراشد عمر ﷺ: أنّه كان يعسّ في الليل.. ويخدم بنفسه الأمّة كبيرها وصغيرها.. ونساءها وأطفالها.. بل حتّى بهائمها: إذ يهنأ البعير الأجرب من إبل الصدقة، ويرعاها.. ويخرج إليها في شدّة القَيظ يتفقّدها.. ويراقب بدقّة سمة التوازن في حياة الأمّة.. فيطارد أهل السوق إلى المسجد، وأهل المسجد إلى السوقِ.. وكان يوجّه المتأخّرين بعد الحجّ، أن يسرعوا بالعودة إلى بلادهم: يا أهلَ الشام شامَكم.! ويا أهل اليمن يمنكم.! ويا أهل العراق عرَاقَكم.!

يقول الأستاذ غالب عبد الكافي القرشيّ في كتابه: " أوّليّات الفاروق السياسيّة ": **" لقد كان عهد الفاروق ﷺ أخصب العهود الإسلاميّة على الإطلاق ؛ سياسةً واقتصاداً، وتنظيماً لشئون الدولة، ولقد اتّسعت الدولة الإسلاميّة اتّساعاً لم يعرف من قبل، وجدّت أمور مع هذا الاتّساع، وتعدّدت المشكلات، وكان الفاروق نسيج وحده، وَسِعَت سياسته كلّ ما جدّ وتطلّبته حياة الناس، فابتكر أشياء لسياسة الناس ورعايتهم، لم يسبق إليها من قبل، منها هذه الأوّليّات، وهي دروس لا يستغني عنها**

---

(7) . رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم / 2673/ ، وَقَالَ: (فَتَعْساً) كَأَنَّهُ يَقُولُ: فَأَتْعَسَهُمُ اللهُ و(طُوبَى) فُعْلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ، وَهِيَ يَاءٌ حُوِّلَتْ إِلَى الوَاوِ، وَهِيَ مِنْ يَطِيبُ.

حاكم دولة، ولا قائد جيش، ولا قاضٍ، ولا فقيه، ولا مشتغل بالسياسة وتنظيم المال ".

ويقول أبو الدرداء ﷺ: **" كم من سنّة راشدة مهديّة قد سنّها عمر ﷺ في أمّة محمّد ﷺ "** [8].

ولكنّ الحقيقة التي يُهمّنا تقريرها في هذه المناسبة أنّ ما فعله **الفاروق** ﷺ إنّما فعله بمقتضى عبوديّته لله تعالى، واستلهاماً من عظيم تقواه لله ﷻ ، وشعوره العميق بالمسئوليّة، وهذا ما جعل عمله متميّزاً نوعاً وعمقاً وأثراً.

سأل الإمام الزاهد القدوة، عبد الله بن المبارك رحمه الله، إخوانه وكانوا معه في الغزو: تعلمونَ عملاً أفضل ممّا نحن فيه.؟ قالوا: مَا نعلم، قال: أنا أعلم، قالوا: فما هو.؟ قال: **" رجل متعفّف ذو عائلة، قام مِن الليل، فنظر إلى صبيانه نياماً منكشفين، فسترهم، وغطّاهم بثوبه، فعمله أفضل ممّا نحن فيه "** [9].

والنماذج على ذلك من حياة الصحابة وسلف هذه الأمّة الصالح أكثر من أن تحصى..

---

(8) نقلاً عن كتاب: " القيادة والتغيير " للدكتور بشير شكيب جابري ص/ 181/ .

(9) إحياء علوم الدين 32/2/، وأحسب أنّه قال لهم هذا القول ليبعد عنهم الاغترار بما هم فيه من الرباط في سبيل الله، فكأنّه يقول لهم: لست وحدك تعمل لدين الله.. وما أكثر العاملين سواك ! وربّما نال الرجل برعاية أهل أجر الرباط والجهاد في سبيل الله تعالى.. وربّما كان ما تستصغر من العمل أعظم أجراً، وأرفع قدراً عند الله من عملك، فاجتهد، ولا تقف عند المظاهر.

ثمّ تحوّل كثير من أهل الخير إلى شخصيّة ذات نمطٍ واحدٍ، وبعدٍ واحدٍ تضخّمه، ولا تتعدّاه.. بل تنتقص ما عداه، وتقلّل من جدواه.. ثمّ اجتُزئت تلك الشخصيّةِ في جزئها.. ثمّ اجتزئ الجزء إلى جُزَيءٍ، وتسلّطت عليه الأهواء.. وقدّم ذلك السلوك القاصر للناس على أنّه المنهج الأمثل، والسلوك القدوة.. فماذا ننتظر بعد ذلك.؟!

فالغنيّ المحسن لا يرى الإحسان إلاّ في إطعام الطعام، وإغاثة الأرامل والأيتام، ولو دعي إلى أنواع أخرى من وجوه الخير والبرّ، ونشر الدعوة، ونفع الأمّة لما ساهم فيها بشيء.. وربّما وقع إحسانه بغير محلّه، وقوفاً مع هواه وقصور رأيه..

وطالب العلم النبيه تراه يألف نمطاً من الدعوة والعمل، ولا يتعدّاه.. ولو دعي إلى ما هو أهمّ منه وأولى، وأكثر نفعاً للأمّة، وأعظم أجراً.. تراه يعتذر ويتأبّى.. وربّما قضى عمره في علم لا ينفع، أو فيما يفرّق الأمّة، ويزيد مآسيها..

وربّما اختار بعض المتصدّين للدعوة وإرشاد الناس منهجاً من نوافل الأذكار وفضائل الأعمال، والناس أحوج ما يكونون إلى إحياء فرائض الإسلام، وتثبيت أركانه..

ومشكلة الأمّة في أحد أهمّ وجوهها: عبادة بغير حركة، أو حركة بغير عبادة.. أو حركة يلتبس بها هوى النفس والانتصار لها بالعبادة، فتتعطّل جوانب

مهمّة من الدين، ولا يكون للعمل بركة ولا أثر.. وربّما عاد على الأمّة بأبلغ الشرّ والضرر..

والعبوديّة الحركيّة قوامها رحمة الخَلْق ونفعهم، والشفقة عليهم والرفق بهم، والدعوة إلى الله تعالى والنصح لعباده، وهي أعظم حاجات الأمّة، وأحبّ الأعمال إلى الله تعالى، وهي من أهمّ فروض الكفاية، التي قصّرت بها الأمّة، فآل أمرها إلى ما هي عليه من شتات وتخلّف.

ولنا أن نتساءل: بم فضلنا السلف.؟ والجواب: أنّ سلف هذه الأمّة الصالح فضلنا بنوع الأعمال لا بكمّها، بالأعمال التي تقع أحسن مواقعها، لا بالانصراف إلى كثرَة الأعمال، وربّما كانت أسهل على النفوس وأحبّ إليها، وغير ذلك أرشد، وإلى الله تعالى أحبّ، وعنده أسعد.

وهذا لا يعني أنّهم لم تكن في أعمالهم كثرة، ولكنّها كانت كثرة نوعيّة متميّزة، ومن ثمّ فهي مثمرة، وبركاتها متكاثرة..

- **معادلات عرائس، تبحث عن أكفائها، ولا يفهمها إلاّ** كرام **الرجال**:

﴿.. وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ الطلاق.

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ القصص.

﴿.. وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢١﴾ يوسف.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الروم.

﴿ .. رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا تَوَدُّ . ﴿٣٥﴾ ﴾ آل عمران.

. مقولات فاسدة يربّى عليها أبناؤنا، وكأنّها نصوص منزّلة مقدّسة، ممّا يدلّ على الخلل في هذه النوافذ كلّها:

" **إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب** ": فهل أصبحت الحياةُ شريعة غاب، وتهارش ذئاب.؟!

" **اتّقِ شرّ من أحسنت إليه** ": إذن لا تفعل الخير لئلا يصيبك الشرّ.. وهو ليس بحديث كما يظنّ بعض الناس، بل يناقض النصوص القطعيّة، ومفاهيم الأحاديث الصحيحة..

" ضع رأسك بين الرءوس، وقل: يا قطّاع الرءوس ": إنّه دعوة صريحة إلى أن يكون الإنسان إمّعة..

۞ ۞ ۞

- المعادلات الإيمانيّة لا تلتقي مع المقولات الفاسدة:

﴿.. وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ الفرقان.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ فصّلت.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ الأعراف.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الشورى.

* من أهمّ أركان العبوديّة الحركيّة وخصائصها:

1 ـ النظرة الشموليّة لِلإسلام.

2 ـ الفقه الدقيق بالواقع ومتطلّباته.

3 ـ التجرّد عَن الهوى وشوائب القصد.

4 ـ إعطاء كلّ عمل حقّه ووزنه.

* ومن مظاهر إبداع السلف في فهم العبوديّة الحركيّة، وترجمتها العمليّة:

1 ـ النظر الدقيق في تقدير أولويّات الوقت، وما يسمّونه: (واجب الوقت): ومن أمثلة ذلك:

أ ـ الحرص على جمع كلمة الأمّة فهي أعلى مصلحةً، وأرجح سبيلاً من أيّ مصلحة أخرى.

ب ـ تَرجيح النفع العامّ على النفع الخاصّ.

ج ـ درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح.

2 ـ الجمع بين العبادة الشاملة، والعبادة بمفهومها الخاصّ، فالمفهوم الشامل للعبَادة لا يتعارض مع خصوصيّة العبادة بمفهومها الخاصّ ومزيّتها.

3 ـ الاجتهاد في سدّ النقص، لا في التنافس على الثغرات المسدودة، وهو من مظاهر فقه السلف وإبداعهم، وانطلاقهم من مصالح الدين والأمّة، وتجرّدهم عن الأهواء وحظوظ النفس.

ـ إنّ رفيع الهمّة في سياحة أبداً، إنّه حرّ يعتزّ بحرّيّته، على قدر ما يسمو بعبوديّته، ينتفع بكلّ الرجال، ولا تقف به همّته عند حال، ولا يقصر نظره على أحد منهم مهما عظم.. حتّى يكون بين يدي المعصوم ﷺ، يأخذ عنه، ويصدر عن إشارته.. فهو مرآة القرآن الكريم، ومعدن أسراره وأنواره.. يقف أمام القرآن متدبّراً، ليجد فيه جواب كلّ مسألة، وحلّ كلّ معضلة..

يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: **" والله ما صدق في عبوديّته مَن لأحدٍ من المخلوقين عليه ربّانيّة "** [10].

وقد كان من حكمة السلف: (**الحريّة حريّة القلب، والعبوديّة عبوديّة القلب**).

وما أبلغ كلمة الإمام ابن تيمية رحمه الله ! وما أعظمها من حكمة: (**المحبوس من حُبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه**).

---

(10) - مجموع فتاوى الإمام ابن تيمية 10/599/.

ويقول ابن دريد في مقصورته / ص 116/ :

وَآفةُ العَقل الهوى فمَن علا على هواه عقلُه فقد نجا

إنّ الرقيق الأسير أسير شهوته الأثيمة، ولو عاش في رحاب القصر الأبيض وحماية القوّة الحصينة.. **والحرّ حرّ** الروح والقلب، ولو أنزلوه من رحاب القصور إلى ظلمات الزنازين، ودفنوه في زوايا النسيان.. إنّه كيوسف الصدّيق عليه السلام، الذي آثر حريّة قلبه وروحه، على شهوة نفسه، ورقّ قلبه..

لأنّ القلب ملك الجوارح، وهو المضغة التي إذا صلحت، صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، كما قال المصطفى صلوات الله عليه وسلامه.

وإن حريّة القلب الحقّة، هي في تحقّقه بالعبوديّة الخالصة لله تبارك وتعالى، في كلّ حركة من حركات حياته، إيماناً بالله تعالى واحتساباً، وطاعة واتّباعاً، وهي لا تكون إلاّ في التطهّر من عبوديّة ما سواه واسترقاقه.. وقد قال الشاعر:

قيّد الحرّ نفسه عن هواه وأبى في الحياة قيد سواه

وترى العبد راضياً كل قيد غير تقييد نفسه عن هواه

وإن أشدّ ما يبتلى به القلب، أن يكون أسير الأهواء والشهوات، أو الوساوس والأوهام، أو الأعراف والعادات، أو التبعيّة العمياء للكبراء والزعماء، التي تستجرّ الإنسان إلى طاعتهم في معصية الله، وتقود إلى ممالأتهم على البغي في الأرض، والعدوان على عباد الله، فيصبح الإنسان لا وعي له ولا

علم، ولا إرادة ولا عزم.. إذ يكون أداة من الأدوات في أيديهم، كالآلة الصمّاء، يصرّفها أحدهم كما يشاء..

وفي حديث السلف عن العبوديّة كلمات كثيرة تبيّن حقائقها وأبعادها، فمن ذلك قول بعض الصالحين: " **أُخرُج من أوصاف بشريّتك عن كلّ وصف مناقض لعبوديّتك، لتكونَ لنداء الحقّ مجيباً، ومن حضرته قريباً** ".

وقوله: " **تحقّق بأوصافك يُمِدَّكَ بأوصافه ؛ تحقّق بذلّك يُمِدَّكَ بعزّه، تحقّق بعجزك يُمِدَّكَ بقدرته، تحقّق بضعفك يُمِدَّكَ بحوله وقوّته، تحقّق بفقركَ يُمِدَّكَ بغناه عمّن سواه** ".

وقوله:" **كن بأوصاف ربوبيّته متعلّقاً، وبأوصاف عبوديّتك متحقّقاً** ".

وقوله: " **مطلب العارفين من الله الصدق في العبوديّة، والقيام بحقّ الربوبيّة** ".

وقوله: " **ما أحببت شيئاً إلاّ كنت له عبداً، وهو لا يحبّ أن تكون عبداً لِغيرِه** ".

ولقد كان تحرير البشريّة من ربقة العبوديّة لغير الله تعالى من أهمّ أهداف إخراج هذه الأمّة المنقذة، لتكون أمّة وسطاً، خير أمّة أخرجت للناس، تقوم بحقّ الريادة للأمم، والقيادة والشهادة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ كُنتُمْ ﴿١١٠﴾﴾ آل عمران.

ولقد عبّر ربعيّ بن عامر رحمه الله، عن فحوى هذه الرسالة المنقذة، وأثرها في حياة الأمم والشعوب، عندما أجاب رستم القائد الفارسيّ عن سؤاله: ما الذي جاء بكم.؟ فقال له، وكان الجواب حاضراً في فكره وشعوره: **" الله ابتعثنا لنخرج العباد، من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام "**.. فكان الإنقاذ من العبوديّة لغير الله أولَ الأهداف لإخراج هذه الأمّة المنقذة، أمّة الدعوة والشهادة والريادة.

وممّا زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيّرت أحمد لي نبيّا

ومن ثمّ كانت معاملة السلف للرقيق، وقد تواضعت كل أمم الأرض آنذاك على إقراره، والتعامل بموجبه، تنطلق من هذا الهدف الدعويّ الحيويّ، بعدما كفل له الإسلام حقوق الآدميّة والكرامة الإنسانيّة، كأرفع ما تكون، وأجلّ ما عُرف، مما لا يخفى أمره على الكبير والصغير في هذا الدين.. في الوقت الذي كانت أمم الأرض كلّها تسقط آدميّة الرقيق وتهدرها، ولا تقيم أيّ اعتبار لإنسانيّته وكرامته، ولا تعترف بحقّ من حقوقه.. وتنظر إلى المرأة وهي أمّ حرّة، وزوجة وبنت، وعمّة وأخت.. تنظر إليها أسوأ من نظرتها إلى المتاع التافه، وتعدّ قدومها إلى الحياة من الخزي الفاضح.! ولا منجى من عارها إلاّ بوأدها.! صغيرة كانت أو كبيرة..

وكان طلب الرقيق للحريّة ـ وهو عبد مشترى بالمال ـ لا يردّ، ولا يتجاوز، كما كان تحريره باباً من أعظم أبواب البرّ والإحسان، والتقرّب إلى الله تعالى، ومصرفاً من مصارف الزكاة المقرّرة.. وكان دخوله في الإسلام مدخلاً ميسّراً إلى تحريره من الرقّ، وردّ اعتباره الاجتماعيّ والأدبيّ.

وقديماً أدرك أولو الألباب الحكماء، وذوو الفكر الحرّ النيّر، قيمة **الحريّة الحقيقيّة التي يريدها الإسلام** للفرد والجماعة، وندرة أحرار القلوب في الناس، فقال قائلهم:

سألت الناس عن خلّ وفيّ ... فقالوا: ما إلى هذا سبيلُ
تمسّك إن ظفرتَ بذيلِ حُرٍّ ... فإنّ الحُرّ في الدنيا قليل

فلن يحظى الإنسان بالخلّ الوفيّ، ماً لم يحظ بالعاقل الحرّ، الذي لا تسترقّه الأهواء والشهوات، ولا تأسره التقاليد والعادات، ولا يعظّم أحداً من البشر إلاّ على قدر خضوعه للحقّ، ووقوفه عنده، ودفاعه عنه..

وأنّى لك أن تجد ذلك إلاّ في الأفذاذ من الناس، الذين لا يكاد يحظى بهم المرء إلاّ على شحّ من الدهر شحيح، وغربة عن حياة الناس وجفاء.؟!

وإلى ذلك يشير الحديث عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: (إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً) [11].

والعبوديّة الحركيّة تفرض على المؤمن الموفّق أموراً هي على درجةٍ كبيرة من الأهمّيّة:

ـ إنّها تفرض عليْهِ الوزن النوعيّ لِلأعمال، على حسب تقدير الشرع وحكمته، فلا يزيد ولا ينقص، ولا يغالي ولا يفرّط.

ـ وتفرض عليه أن يضرب من كلّ غنيمةٍ بسَهم، ويلجَ ما استطاع من أبوابِ الخير والبرّ، فلا يرضى لنفسه إلاّ أن يكون محلّقاً مع المحلّقين، سَابقاً أو مجلّياً.

ـــ وتفرض عليه أن يأخذ بالعزائم في أغلب أحواله، فلا يترخّص في دينه إلاّ حيث يحبّ الله مِنه الرخصة، ولا يفتحُ لنفسه أبوابَ التأويلِ حيث لا يسوغ شرعاً ولا يقبل.. وإلاّ يكن المؤمن كذلك فلا يطمع أن يكون في صفوف السابقين من صفوة العاملين، وليَسَعه ما يسع العامّة.. ففي قاعدة الهرم العريضة متّسع للكَثيرين..

---

(11) - رواه البخاريّ في كتاب الرقاق باب رفع الأمانة برقم / 6133/ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم / 4620/ .

والأخيار في كلّ جيل عامّة وخاصّة، وخاصّة الخاصّة ؛ فللعامّة أحكام التيسير والرخص، وللخاصّة الأخذ بالعزائم، على وجه العموم، وفي أكثر الأحوال، وهي العزائم التي ترفع الهمم، وتدني من المقاصد.. ولخاصّة الخاصّة الريادة والقيادة في أكثر الشؤون، وهم السابقون: ﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ فاطر، والفرق بينهم وبين الخاصّة، كالفرق بين من يضع " الاستراتيجيّة "، ومن ينفّذها.. و " المرء حيث يضع نفسه ".

وعجباً لمن لا يرتضون لأنفسهم إلاّ أن يكونوا من الخاصّة، ثمّ تراهم يترخّصون في كلّ شأن، وقد ترى بعض العامّة أرقى إيماناً منهم، وأقوم سلوكاً، وأصلح عملاً.!

وإنّ من صفات المؤمن الحقّ، والصفوة من الخلق: قوّةً في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وقصداً في غنى، وتجمّلاً في فاقة، وإحساناً في قدرة، وصبراً في شدّة، لا تقصر به نيّته، ولا تفتر عزيمته، ولا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحميّة، ولا يستخفّه الحرص، ولا يستهويه اللهو، ينصر المظلوم، ويرحم الضعيف، لا يبخلُ ولا يبذّر، ولا يسرف ولا يقتّر، يغفر إذا ظُلم، ويعفو إذا قدر، يحلم عن السفيه، ويصفح عن الجاهل، نفسه منه في عناء، والناس منه في رخاء، وهمّه في كلّ شأن مرضاة ربّه..

أيها الأخ الكريم. ! أتريد أن تكون من الصفوة، أو من خاصّة الخاصّة.! فماذا قدّمت لذلك.؟!

قَد رَشَّحُوكَ لأمرٍ لَو فَطِنتَ لَه فَارباً بِنَفسِكَ أن تَرعَى مَعَ الهَمَلِ

أما علمت أنّ سِلعة الله غالية، وأنّ الجنّة لا تنال بالأماني.؟!

أين أنت من مكابدة الليل، وظمأ الهواجر.؟!

أين أنت من الدعوة إلى الخير ونفع الأمّة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.؟!

أين أنت من أهل البرّ والإحسان، والشفقة على عباد الله.؟!

أين أنت من أهل الحبّ في الله، والبغض في الله، والغيرة على حرمات الله، والمراغمة لأعداء الله.؟!

أين أنت من أولئك الجنود الأتقياء الأخفياء، الذين لا يعرفهم مأثم، ولا يفوتهم مغنم.؟! الذين قَالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿ٱللَّهُ .. يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ .. ﴿٥٤﴾﴾ المائدة.

أين أنت من المسارعين في الخيرات، والذين هم لها سابقون.؟!

أين أنت من قول بعض السلف: " كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ؟ أم كيف يرحل إلى الله، وهو مكبّل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرةَ الله، وهو لم يتطهّر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهمَ دقائق الأسرار، وهو لم يتب من هَفواته ؟ ".. لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحِمارِ الرحى، يسير والذي ارتحل إليهِ هو الذي ارتَحَلَ منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوّنِ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ النجم. وانظر إلى قولِه ﷺ: (فَمَنْ كَانَتْ

هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ). فافهم قولَه عليه الصلاة والسلام، وتأمّل هذا الأمر إن كنت ذا فهم. والسلام ".

أين أنت من أَحِبَّاءِ الله.؟! الذين وصفهم أحد دعاة الإسلام بقوله: " إنّ لله عباداً قَطعُوا عَلائِقَ الشهواتِ، وأسرَجُوا مَراكِبَ الجِدِّ بِصِدقِ العَزَماتِ، وَامتَطَوا جِيادَ الأمل، واتَّجهُوا إلى الله عَلى وَجَل، وَتَزوّدُوا إليه بِصَالح العَمَل، مَعَ إخلاص النِّيَّةِ، وَتَوسَّلُوا إليهِ بِصَفاءِ القَلب، وَصِدقِ الطَّوِيّةِ، فَمَرُّوا بالخُضرةِ الفَاتِنةِ مُسَبِّحينَ، وَبالخَطب اللاهِب مُستَعِيذينَ، وَلم يَعبَؤُوا بالعَقَباتِ، وَلم يَلتَفِتُوا إلى المُغرياتِ، قَد صَانُوا وُجُوهَهُم عَن الابتِذالِ، وَطَهّرُوا أقدامَهُم مِنَ الأوحَالِ، استَعانُوا بالله عَلى مَشَقّةِ الطَّرِيقِ فَذَلّلَ لهُم صِعابَه، وَعَلى بُعدِ المَدَى فَلَملَمَ لهُم رِحَابَه، فَلَمّا اجتَازُوا الصِّعَابَ، سَألُوا اللهَ فَفَتَحَ لهُم بَابَه، فَلَمّا دَخَلُوهُ استَضَافُوهُ فَقَرّبَهُم، وَرَفعَ دُونَهم حِجَابَه، فَلَمّا استَطابُوا المُقامَ بَعدَ طُولِ السُّرَى قَالُوا: ﴿ٱلَّهُ . ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

الزُّمَر. أُولئِكَ أَحِبَّاءُ الله، صَـدَقُوهُ العَهدَ فَصَـدَقَهُم الوَعدَ، وَمَحَّضُـوهُ الحُبَّ فَمَنَحَهُمُ القُربَ " [12].

وعندما نتحدّث عن العبوديّة لله تعالى، التي هي شرف الإنسان وسعادته، وعزّته وكرامته لابدّ أن نذكر بالأسى والشفقة، والحزن والألم حال أولئك الذين رضوا بالحياة الدنيا، ولم يريدوا سواها، واستبدلوا الخبيث بالطيّب، وآثروا درب الذلّ والصغار، على سبيل العزّ والفخار، فتقلّبوا في قيود من ألوان العبوديّات لغير الله، وتاهوا في مجاهل الوهم والسراب: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ يس، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ الكهف.

فهل لهؤلاء أن يعودوا إلى رشدهم قبل أن تحلّ بهم المثُلات، وتحيط بهم الندامات، ولات ساعة مندم.!

(12) - من كلام الداعية الإسلامي الكبير المفكر الدكتور مصطفى السباعي يرحمه الله.

ولنقف الآن كما وعدنا عند هذه النوافذ، ملتمسِين العون والفتح من الفتّاح:

1 ـ النافذة الأولى: **نافذة الإرادة** وسموّ الهمّة: فالإرادة باعث كلّ قصد، ومبدأ كلّ عملٍ، ومثير كوامن الهمّة، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ الإسراء، ويقول سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الكهف، ويقول ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ البيّنة.

يقول الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى: **" علم السلوك مبنيٌّ على الإرادَة، فهي أساسه، ومجمع بنائه، وهو مُشتَمِل عَلَى تفاصيل أحكام الإرادَة، وهي حركة القلب، كما أنّ علم الفقه مُشتَمِل عَلَى تفاصيل أحكام الجوارح ".**

فالفقيه ينظر في تلكَ الحركات منْ جهة موافقتها لأمر الشرع ونهيه، وإذنه وكراهته، ومتعلّقات ذلك، والمريد ينظر في تلكَ الحركات منْ جهة كونها موصلة له إلى مُراده، أو قاطعة عَنْه، ومفسدةٌ لقلبه، أو مصحّحة له ".

ومن مقدّماتها: الذهاب عن العادات بصحّة العلم، مع صدق القصد، وخلع كلّ شاغلٍ.. وهي مخالفة العادة [13].

وقَالَ الدقّاقيّ رحمه الله: " الإرادَة لَوعة في الفؤاد، لذعة في القلب، غرام في الضمير، انزعَاج في الباطن، نيران تأَجّج في القلوب ".

وقال أبو عثمان الحيريّ رحمه الله: " من لم تصحّ إرادته ابتداء، فإنّه لا يزيده مرورُ الأيّامِ عليهِ إلاّ إدباراً ".

فهل نحن أصحاب إرادة.؟ ومَاذا نُريد ؟ وهل نحن صادقون وجادّون فيما نريد ؟! وكيف نسعى إلى ما نريد ؟! وكيف نكسر صخرات العوائق التي تقف في وجه إرادتنا.؟ وما أكثرها.! وهل نستطيع أن نجرّد الإرادة عن العواطف الرعناء، والرغبات الجامحة، التي تكسر عزيمتها، وتفسد نقاءها، وتعكّر صفاءها.؟ إنّها أسئلة محوريّة تنتظر منّا الإجابة ! ويترتّب عليها ما يترتّب.. وما أكثرَ من يتجاوزها، ولا يفكّر فيها !

والإرادة حمّالة أوجه، تنوء بأمّهات الحقائق والمعاني.. فهي الصبر والثبات، وهي الهمّة والعزيمة، وهي النيّة الصادقة المخلصة، وهي الولاء لله ورسوله ﷺ، وهي الحبّ في الله، والبغض في الله، وهي وضوح الهدف، واستقامة السلوكِ،

---

(13) . تهذيب مدارج السالكين ص/441/.

وهي المحبّة والرغبَة، فلا إرادة للإنسان بغير رغبة ومحبّة.. ومن أهمّ آثار الإرادة الصادقَة: التجرّد عن حظوظ النفس، وبنيّات الهوى..

ومن كلام بعض الصالحين: " إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس فاتّبعه، فإنّه لا يثقل عليها إلاّ ما كان حقّاً ".

" من علامة اتّباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات ".

" تمكّن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال ".

وقد قسم الله تعالى عباده فريقين بقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ .. ﴿١٥٢﴾﴾ آل عمران، وإنّما تعرف إرادة الآخرة بسموّها وتجرّدها، ورسوْخها وتألّقها، كما تقول عائشة رضي الله عنها: " إنّ رسول الله ﷺ رفع له علم فشمّر إليه ".

* وقال الشاعر البحتريّ: نفسٌ تُضيءُ وهمّة تتوقّدُ

* ـ وشتّان بين إرادة الدنيا وإرادة الآخرة: فالمسافة الفكريّة والشعوريّة بينهما لا تقدّر ولا توصف.. إنّها في نفوس الكافرين وضعفاء الإيمان الغافلينَ بعيدة نائية، تحول بين الدارين والإرادتين حجب كثيفة، حتّى يغدو الحقّ أشبه بالباطل، واليقين أشبه بالشكّ والوهم: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ المعارج.

ـ وهي في نفوس المؤمنين الصادقين قريبة لاصقة، والجمع بينهما أصل ميسور، كما جاء في الحديث الصحيح: (الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ) [14]، إذ يعمل العمل ظاهره للدنيا، ويؤجر عليه لأنّه يبتغي به وجه الله ﷻ.

وعندما تقف الدنيا عقبة في وجه الآخرة، فما أيسر التخلّي عنها ونبذها عند المؤمنين المحسنين..

وهل ننسى موقف عمير بن الحِمام الأنصاريّ ﷺ يوم بدر حين استطال لحظات كان يأكل فيها تمرات، فقال: **" بخٍ بخٍ.! ما بيني وبين الجنّة إلاّ أن يقتلني هؤلاء.؟! "**، ثمّ رمى ما كان بيده من تمرات.. وقاتل حتّى قتل ﷺ..

* - مفرق الطريق: وعندما نتحدّث عن الإرادة لابدّ أن نقف عند قول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ .. ﴿١٥٢﴾﴾ آل عمران، ونسترشد به..

وإنّ مفرق الطريق يتجلّى في شتات إرادة الإنسان بين الدنيا والآخرة، وضعف حكمة الإنسان عن الجمع بينهما.. ولكنّها مسألة محسومة منتهية في نظر العقلاء الألبّاء.. والأمر لا يحتاج إلاّ إلى الفقه بدين الله، والوعي بحقائقه،

---

(14) رواه البخاريّ في كتاب الرقاق عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ برقم / 6007/، وأحمد في مسند المكثرين برقم / 3485و3728و3998/.

ومجاهدةِ النفس الدائبة، والصدق مع الله ﷻ في جميع الأحوال، وتوفيق الله تعالى قبل ذلك وبعده..

وخير عون للمؤمن على ذلك أن يكون مع المؤمنين الصادقين، يلزم سبيلهم، ويهتدي بسمتهم، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾التوبة.

ويقول سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾ الكهف.

ومن كلام بعض السلف: **" لا تصحب من لا يُنهِضُك حاله، ولا يدلّك على الله مقاله "**.

وعندما نذكر سموّ الإرادة وتفرّدها، وعلوّ الهمّة وتألّقها، لابدّ أن نذكر ثمراتها وبركاتها، وأجلّها وأثمنها ما توّج به النبيّ ﷺ عمر بن الخطّاب ﷺ إذ قال : (إِنَّ اللهَ جَعَلَ الحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ) [15].

---

(15) رواه الترمذيّ في كتاب برقم المناقب / 3615/ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، وقَالَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، ورواه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء برقم / 2572/ ، وفيه أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ كَتَبَ: " إِنَّ مَنْ سَأَلَ عَنْ مَوَاضِعِ الْفَيْءِ فَهُوَ مَا حَكَمَ فِيهِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ فَرَآهُ الْمُؤْمِنُونَ عَدْلاً مُوَافِقاً لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (جَعَلَ اللهُ الحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ) فَرَضَ الأَعْطِيَةَ لِلْمُسْلِمِينَ وَعَقَدَ لأَهْلِ الأَدْيَانِ ذِمَّةً بِمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ الجِزْيَةِ

وقَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ: " مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ، وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ ﷺ إِلاّ نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ ﷺ " [16].

فعلى قدر صدق العبد في إرادته، ومضاء عزيمته وهمّته يكون الحقّ محور حياته، وعلى قلبه ولسانه، وقصده وهمّته.

ورَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْـلَمِيُّ ﷺ يتجاوز الدنيا وما فيها حين تهيّأ له أن يطلبَ من النَّبِيِّ ﷺ منيته، فسأَلُه مُرَافَقَتَه فِي الجَنَّةِ، كما جاء في الحديث عن رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْـلَمِيِّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُـولِ الله ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُـوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: سَـلْ، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ، قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) [17].

* ـ وانظر إلى أثر الإرادة الشريفة الطاهرة في التحوّل إلى سبيل الحقّ والهدى، في حياة كثير ممّن منّ الله عليهم بالتوبة وابتغاء وجه الله والدار الآخرة.. كان إبراهيمُ بن أدهم رحمه الله، شابّاً منعّماً يلهو بالصيد، وهو من أبناء ملوك فارس، فسمع نداء ذات مرّة، وهو غارق في لهوه ومطاردة صيده: **" يا إبراهيم !**

لَمْ يَضْرِبْ فِيهَا بِخُمُسٍ وَلا مَغْنَمٍ "، فانظر كيف احتجّ على اتّباع سنّة عُمَرَ ﷺ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ.

(16) . انظر المرجع السابق.

(17) - رواه مسلم في كتاب الصلاة باب فضل السجود والحثّ عليه برقم / 754/ والنسائي برقم / 1126/ وأبو داود برقم / 1125/ .

ألهذا خلقتَ أم بهذا أمرت ؟! "، فكان ذلك سبب زهده في الدنيا، وتوبته إلى الله تعالى ، حتّى سمّي سلطان الزاهدين.

وسمع الفضيل بن عياض رحمه الله تالياً يتلو قول الله تعالى من سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ فقال: " بلى يا ربّ لقد آن "، فلزم سبيل العلم والاستقامة، وكان من الزهّاد العابدين.

* ـ والإرادة الصادقة المغمورة بذلّ العبوديّة لله **تعالى** والافتقار إليه خير بابٍ للدخول على الله ﷻ .. يقول الإمام الربّانيّ عبد القادر الجيلانيّ رحمه الله: " **نظرت في أبواب الدخول على الله تعالى فوجدتُها كلَّها مزدحمةً، إلاّ بابَ الذلّ والافتقار.. فدخلت منه إلى الله تعالى** "

* ـ ويكشف لنا ذلك الإمام الفذّ تلك الإرادات التافهة، التي لا تفكير لأهلها، ولا همّ لهم إلاّ الدنيا وشهواتها، وكيف تضيع الأعمار وراءها، فيقول: " **ضاع العمر في: أكلوا وأكلنا.. وشربوا وشربنا.. ولبسوا ولبسنا..** ".. وما اختلف فينا عن ذلك شيء، فنحن اليوم: **همّنا** ـ إلاّ من رحم ربّك ـ التنافس في المأكل الطيّب.. والمشرب الهنيء.. وقضاء الوطر.. والمركب الجديد.. والمسكن الفخم الواسع.. ثمّ قضاء أيّ وقت فراغ في اللهو واللعب.. وربّما خاصم أهله أشدّ

المخاصمة على تقصيرهم في أنواع المأكل والمشرب.. ثمّ يظنّ نفسه أنّه من صفوة الأمّة وخيارها.. وما أصدق قول الشاعر الحطيئة في كثير منّا [18]:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي

إنّنا نعجب والله كلّ العجب أن نرى أحوال الأمّة في تخلّفها على كلّ صعيد، وأنّها أكثر أمم الأرض فقراً، وجهلاً، ومرضاً.. وفي أرضها تتدفّق الخيرات من كلّ لون: ذهباً أصفر وأسود، وأحمر وأبيض، ومن كلّ ما شئت.. ثمّ نرى أغنياءها ينفقون أموالهم ذات اليمين وذات الشمال، في أبواب من البطر الإسراف، والتبذير والترف، والسفه الذي لا يقف عند حدّ.. وقد يمنّ أحدهم على ربّه، وعلى عباد الله، بما يدفع من زكاة ماله، وهو يسمع بمن يموت مرضاً وجوعاً وعرياً، ومن يفتن عن دينه، فيكفّر استغلالاً لضرورته.. ثمّ لا يحرّك ذلك من نفسه ساكناً.!

ولقد كُتبَ عليّ في لقاء مع بعض الأغنياء ممّن يعدّ من صالحيهم، أن أستمع إليه قرابة ساعة ونصف، وهو يتحدّث، ويستفيض في الحديث ويسترسل، عن أبواب من بطره، وبطر أهله وأولاده وأحفاده.. وذكر أرقاماً دهشت لها والله، فتملّكتني الجرأة، فقلت له: أتعرف فلاناً من الناس.؟ فقال: وكيف لا أعرفه.؟!

---

(18) وقد قاله في الزبرقان بن بدر يهجوه، فشكاه الزبرقان إلى الخليفة عمر ﷺ، فحكّم عمر ﷺ الشعراء في ذلك، فعدّوه من أمرّ الهجاء وأقذعه.. وهو اليوم ممّا يتمدّح به الناس، ويفتخرون !!

إنّني أعرفه حقّ المعرفة، وأعرف والده رحمه الله، فقد كان صديقاً لي منذ الصغر.. فقلت له بشيء من المزاح الجادّ: إذن على المغيث سقطتُ.! قال: وماذا.؟ فقلت له: إنّ فلاناً واقع في أزمة ماليّة ناجزة، وإنّ ممّا يخفّف من أزمته أن يعان بإيجار بيته، وبيت ولده المتكفّل به.. فتغيّر وجه الرجل، ويبدو أنّه فوجئ بما سمع، فقال لي: هذا واجب.. وسأل عن المبلغ، فأجبته، فقال لي: سيكون هذا المبلغ عندك خلال يومين، فقلت له: أرى أن تقدّمه بنفسك.. عنوان صداقتك مع والده رحمه الله.. فقال لي: لا والله إلاّ عن طريقك..

وفي نهاية اللقاء ذكّرته بلطف بأمر صاحبنا، فقال لي: إن شاء الله كما وعدتك، أنا لا أنسى هذه الأمور.! ومضت أيّام، وبعدها أسابيع، ثمّ بدا لي أن أذكّره عن طريق مدير أعماله، فكان جوابه: إن شاء الله ! إن شاء الله ! ويبدو أنّ الله لم يشأ له أن يفعل هذا الخير.!

وهذه عينة، وما أكثر أمثالها.! فكيف نعجب ونستنكر أن تكون أحوال الأمّة على ما هي عليه.؟!

أيّها الأحبّة ! أين التفكير في المصير.؟ والاستعداد ليوم الرحيل.؟! لقد أصبحت الآخرة على هامش الحياة والتفكير، وهذا عندَ كثير من الملتزمين، تحت مظلّة حِلّ المباح، والتمتّع بالمباح.. ولا نتحدّث عمّن نسي الآخرة، وجعلها وراءه ظهريّاً..

* ـ فلننظر في **خيوط اهتماماتنا: إلى ماذا هي مَشدودةٌ.؟ أهي مَشدودةٌ** إلى الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة، أم إلى الشيطان والدنيا وأهواء النفس ورعوناتها.؟!

* ـ ولعلّنا نذكر هذا الدرس البليغ من حياة النبيّ ﷺ مع زوجاته الطاهرات، فعندما بدرت منهنّ بادرة الرغبة في الدنيا، والحرص على التنعّم فيها هجرهنّ كلّهنّ، ثمّ خيّرهنّ بالعيش معه على ما اختار من حياة، أو مفارقته لهنّ، ونزل بذلك القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الأحزاب. فانظروا رعاكم الله بم أجبن.!؟ لقد أجبن كلّهنّ أنّهنّ يردن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة.. ولاشكّ أنّ هذه الإرادة لها تكاليفها، وليست كلمة مجاملة، تقال في مناسبة عابرة..

* ـ يقول بعض الصالحين: " مَا أرادت همّة سالِك أن تقف عند ما كشف لها إلاّ ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، ولا تبرّجت له ظواهر المُكَوَّنات إلاّ ونادته حقائقها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ". إنّ كلّ ما في الحياة فتْنة، يقِف حجباً سميكةً أمام إرادتنا وهممنا.. ومن أخطر ما يجتاح إرادتنا، ويكسر عزيمتها من فتْنة الحياة أن نرضى عن أنفسنا، ونبرّر مواقفها،

ونظنّ بها الخير والرشد، وهي غارقة في الوحل متخلّفة، وأن نسمّي الأشْياء بغيرِ اسمها، تبريراً لمواقفنا وتسويغاً: فالهزيمة النفسيّة عند بعض الناس هي فنّ المناورة، وإيثار الدنيا على الآخرة تمتّع بالحلال المباح، وبعد عن التشدّد الممقوت، ومن يجرؤ على تحريم الطيّبات من الرزق.؟! واللصوصيّة شطَارة ونجاح، والسقوط واقعيّة وذكاء.. وأن نُقدّمَ فلسفةً للانحراف والسقوط تغرينا بمزيد من الانحراف والسقوط.. وتجعلنا لا نفكّر في النهوض، أو البحث عن النور.. ومن كلام بعض السلف: " **أصل كلّ معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كلّ طاعة ويقظة وعِفّة عدم الرضا عن النفس، ولأن تصحبَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحبَ عالماً يرضى عن نفسه، فأيّ علم لعالم يرضى عن نفسه.؟ وأيّ جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه.؟!** ".

* تقارب الخطى، بل تطابقها: إنّ المؤمن الحقّ، الموفّق البصير لا يعرف الانفصام بين إرادة الدنيا، وإرادة الآخرة، بين موطئ قدمه في الدنيا، وموطئ قدمه في الآخرة، إذ إنّه يعلم أنّ الحالة المثاليّة المطلوبة منه أن يتطابق موطئ قدمه في الدنيا مع موطئ قدمه في الآخرة، وأن يكون قدم الدنيا في خدمة قدم الآخرة، فالدنيا لا تراد لذاتها، وإنّما هي وسيلة ومزرعة للآخرة، وذلك ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام.

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ القصص.

قال بعض أصحاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله: " **إنّي لأحسب أنّ عمر بن عبد العزيز لم يعمل عملاً إلاّ وهو يحتسبه** ".

ـ وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: " **إنّي لأحتسب نومتي، كما أحتسب قومتي** ".

* نماذج متألّقة: لقد كانت أعظم مهمّة للأئمّة الربّانيين في حياة هذه الأمّة أن يوجّهوا همم الناس إلى إرادة الآخرة، وأن تكون مواقع أقدامهم في الدنيا حيث كانت تحسب خطوات في الآخرة، إنّهم أصحاب قدم الصدق الراسخة في الآخرة لا يحصون عدّاً، وهم نماذج التغيير والتأثير المتألّقة، وروّاد تجديد الدين وإحيائه..

منهم الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله إذ يقول: " إنّ لي نفساً توّاقةً.. ما بلغَت مَنزلةً إلاّ تاقَت لما هو أعلى منها، فلمّا بلغتُ الخلافةَ تاقَت نفسي لما هو أعلى منها، فلم أجد إلاّ الجنّةَ.. وعلمتُ أنّ ما عندَ الله لا يُنالُ إلاّ بالزهد في الدنيا فزهدتُ فيها ".

ومنهم حجّة الإسلام الإمام الغزاليّ رحمه الله، الذي انعطف ذلك المنعطف الكبير في حياته، ودونكم كتابه: **" المنقذ من الضلال "**، فاقرءوه وتدبّروه، وما كان به ضلال الفكر، ولكنّه رأى في نفسه سوء القصد، وفساد الإرادة، وضلال السعي وراء الهوى، وابتغاء عرض الدنيا وحطامها..

ومنهم الإمام عبد القادر الجيلانيّ رحمه الله، الذي اجتمعت عليه قلوب الأمّة على اختلاف اتّجاهاتها ومشاربها.. وهذا سرّ إمامة هؤلاء الأئمّة المهديّين وتألّقهم..

* قال لي بعض الشباب الصادقين: **" يهنّئني الناس أنّني الأوّل على مدرستي، وما سألني أحد: هل أنت من المقرّبين عند ربّك.؟! ".**

وقال آخر لأمّه، وقد هنّأته بحفظ القرآن الكريم: **" بم تهنّئينني.؟ وقد عظمت مسؤوليّتي أمام الله ! أرجوك أن تدعي الله تعالى أن يكون القرآن حجّة لي يوم القيامة، لا حجّة عليّ ".**

كلّ الناس يبحث في هذه الدنيا عن موطئ قدمٍ، ليكون عيشه فيها رغداً.. ولكنّه عندما يكون له موطئ قدمٍ أيكتفي به أم إنّه يقول: هل من مزيد.؟! ثمّ لا يشبع من مزيد.. ومن منّا يتبصّر موطئ قدمه في الآخرة، أو يبحث عنه، ويفكّر فيه.؟: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ .. ﴿٢﴾ ﴾

يونس.. إنّهم قليل: ﴿صدق الله وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ سبأ. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم..

وما أكثر ما كان موطئ القدم في الدنيا مزلّة قدم عن الآخرة.. لأنّ مزالقها لا تعدّ ولا تحصى.. يقول الشاعر مُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرٍ [19]:

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرّةٍ زلجا

* نماذج ومظاهر من اختلال الإرادة:

* تفوّق الأولاد الظاهريّ هو الغاية التي ما بعدها غاية في نظر أكثر الناس، تبذل له الأموال والجهود والأوقات.. وهو مقياس النجاح في الحياة.. والنموذج المحتذى، ولا عبرة بما فوق ذلك، وما دونه، ولا عبرة عن أيّ طريق أتى.! فأيّ تخلّف يملأ إهابنا.؟!

* وانظر معي في نماذج من واقعنا التربويّ المتعثّر:

* متفوّق في دراسته عاقّ لوالديه..

* متفوّق في دراسته مخفق في حياته الاجتماعيّة، وقدرته على التكيّف مع الآخرين..

* متفوّق في دراسته مغرور بنفسه، واقف عند أمجاده الموهومة..

---

(19) - وهو شاعر عبّاسيّ مُقلّ، انظر أدب الدنيا والدين ص / 276/ .

* متفوّق في دراسته، بلا تفكير سويّ ولا إبداع، وإنّما حشو رأسه أمشاج من المعلومات، لا يعرف سوى حفظ ما يلقى عليه منها كالببّغاء..

ـ وإنّ **من انتكاسات الإرادة**، ومن ظواهر أمراضنا وأعراضها: **غفلتنا عن مسئوليّاتنا الخاصّة، وإهمالنا لها**، فكيف يقود مَركَب الأسرة ومَركَب الحياة والآخرين، من يعجز عن قيادة مَركَب النفسِ وسياستها.؟ وكيف نقدم على الله تعالى، ونحن مفرّطون بأماناتنا، مضيّعون لها .؟

وما أحوجنا إلى إثارة هذه التساؤلات بين الحين والآخر، وأن نصدق مع أنفسنا في الإجابة عنها: ماذا قدّمنا لديننا، وماذا نقدّم.؟ أنحدو للركب ونرعى حركته.؟ أم نشوّش عليه ونعوّق مسيرته.؟ ونصدّه عن صراط الله **المستقيم**.. إنّني أقول بكلّ أسى: **إنّ فينا فَتّانين** وقطّاع طرق، وفينا معوّقين ومثبّطين.. وما أخطر قطّاع الطريق على القافلة.! وما أشدّ خطرهم وضررهم عندما يكونون من أبنائها، يعيشون في صفوفها، وينعمون بظلالها، أو يكونون من رعاتها، ويملكون بعض زمامها.! فيكونون فتنة للأقربين والأبعدين.. فليكن لسان صدقك قائلاً:

سوف أحدو للركب ما دمت حيّاً عسلاً ذقت أم طعامي شيحُ

إنّ دعوة الحقّ أخي المؤمن ! تتطلّب تجريد الهمّة ومضاء العزيمة، وأن لا يقف المؤمن عند المعوّقات والمثبّطات، كما وصف الشاعر أمثال هؤلاء :

إذا هَمّ ألقَى بين عَينيه هَمَّه وَنَكّبَ عَن ذِكرِ العَواقِبِ جَانِبا

وإنّه لا يفقه دعوة الحقّ، ولا يحظى بشرف نصرتها من ظنّ أنّها بضاعة الضعفاء والكسالى.. إنّها مهنة الأنبياء وميراثهم، وأنبياء الله تعالى هم صفوة الصفوة.. وإنّها دعوة تتطلّب همم الصفوة.. وإنّ الصفوةَ هم الذين يحملون همّ الدين والدعوة، ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، إنّه همّهم المقيم المقعد، الأوّل والأخير، يطغى على كلّ همّ، ويملك كلّ القوى والمشَاعر، يعيشون لأجله، ويسخّرون كلّ طاقاتهم لنصرته وتأييده، ويبذلون في سبيله كلّ غالٍ ونفيس..

وقد حدّد الإمام البنّا رحمه الله صفات هؤلاء في كلمات جامعة: " وإنّ تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمّة التي تحاول هذا أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقلّ إلى قوّة نفسيّة عظيمة، تتمثّل في عدّة أمور:

1 ـ إرادة قويّة لا يتطرّق إليها ضَعْف.

2 ـ وفاء ثابت لا يعدو عليه تلوّن ولا غدر.

3 ـ تضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل.

4 ـ معرفة بالمبدأ، وإيمان به، وتقدير له، يعصم من الخطأ فيه، والانحراف عنه، والمساومة عليه، والخديعة بغيره "[20].

وعلينا أن لا ننسى أنّ الأمّة المغلوبة على أمرها، المحجُوبة عن السيادة والصدارة لا تبلغ القمّةَ وهيَ واهنة الإرادة، مختلطة المقاصد، أسيرة الهوى.. لابدّ

---

(20) . من رسالة: " إلى أيّ شيء ندعو الناس " للإمام حسن البنّا.

أَن يغيّر الإيمان أحوالَها، ويزوّدها بطاقات جديدة من اليقين بالله، والتجرّد عن المطامع، والجراءة في نصرة الحقّ، حتّى تستطيع أنْ تقهر عدوّها، وتضع على الأرض طابعاً جديداً من العبوديّة لله ﷻ، والترفّع عن شهَوات الدنيا..[21].

وإنّ ممّا يشحذ إرادتك، ويذكي همّتك أن تعلم أنّ حقيقة الصراع بين الحقّ والباطل، والخير والشرّ، في النفس، وفي شتّى ميادين الحياة إنّما هو صراع إرادات.. فهل ترضى لنفسك أن تكون المغلوبَ المقهور، وأنت تملك الإرادة الحرّة، والعزيمة الصادقة.؟! وشتّان بين ما تَطمح إليه وترجوه، وما يطمح إليه أولئك الذين لا يعرفون إلاّ الدنيا، ولا يحومون إلاّ حولها..

وإنّ ممّا يحفّز أخي الكريم إرادتك، وينهض بهمّتك أن تتدبّر إرادة الله لك، وهو سبحانه الغنيّ عن العالمين، إذ يقول الله ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ النساء.

ويقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ البقرة.

---

(21) - من كلام الشيخ محمّد الغزاليّ في بعض كتبه، بتصرّف وزيادة.

ويقول ﷻ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ النساء.

ويقول جلّ وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ الأحزاب. والآيات في هذا المعنى كثيرة..

* وبعد ؛ فأخوف ما ينبغي أن يخيف المؤمن: **حديث الثلاثة في صحيح مسلم**: عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ:

كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) [22].

(22) . رواه مسلم في كتاب الإمارة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ برقم / 3527/ .

2 ـ النافذة الثانية: نافذة العلم والحكمة:

يقول الله تعالى: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ ﴾ البقرة. وانظر وتدبّر كم من مرّة اقترن فيها اسما الله ﷻ : **" العليم الحكيم "** في القرآن العظيم.!

إنّ الإنسان أحوج ما يكون إلى أن يستضيء بنور العلم في كلّ خطوة من خطوات حياته، وأن يكون العلم الصحيح مصدر سيره وتوجّهه، لا التعصّب وتقديس الهوى.. ومن ثمّ يأتي قول الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤ ﴾ طه. تذكيراً للإنسان بأن ما هو عليه من العلم يحتاج إلى مزيد منه دائماً، وإنّها لحقيقة بدهيّة، لا يقف عندها أكثر الناس لشدّة وضوحها وبداهتها، ولكنّ أكثرهم يخرجون عنها في سلوكهم العمليّ، ومواقفهم اليوميّة، ولا يرون أنفسهم إلاّ محسنين.. إنّنا نحتاج كلّ لحظة أن ندعو هذا الدعاء: ﴿ رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾.. ونرى كثيراً من الناس يقفونَ عند ما هم عليه من العلم منذ ثلاثين سنة أو أقلّ أو أكثر، ويريدون للناس أن يقفوا معهم كذلك، ويرون أنفسَهم أنّهم على كمال ما بعده من كمال..

ومن أجمل ما وقفت عليه في بيان منزلة العلم والترغيب فيه، قول الإمام الماورديّ رحمه الله: « .. عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالعَقْلَ سَعَادَةٌ وَإِقْبَالٌ، وَإِنْ قَلَّ مَعَهُمَا المَالُ، وَضَاقَتْ مَعَهُمَا الْحَالُ. وَالجَهْلَ وَالحُمْقَ حِرْمَانٌ وَإِدْبَارٌ، وَإِنْ كَثُرَ مَعَهُمَا الْمَالُ، وَاتَّسَعَتْ فِيهِمَا الْحَالُ ؛ لِأَنَّ السَّعَادَةَ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ المَالِ، فَكَمْ مِنْ مُكْثِرٍ شَقِيٍّ،

وَمُقِلٍّ سَعِيدٌ. وَكَيْفَ يَكُونُ الْجَاهِلُ الغَنِيُّ سَعِيداً، وَالجَهْلُ يَضَعُهُ.؟ أَمْ كَيْفَ يَكُونُ الْعَالِمُ الْفَقِيرُ شَقِيّاً وَالْعِلْمُ يَرْفَعُهُ ؟ وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ: كَمْ مِنْ ذَلِيلٍ أَعَزَّهُ عِلْمُهُ، وَمِنْ عَزِيزٍ أَذَلَّهُ جَهْلُهُ.. وَأَنَا أَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنْ خِدَعِ الجَهْلِ الْمُذِلَّةِ، وَبَوَادِرِ الحُمْقِ الْمُضِلَّةِ، وَأَسْأَلُهُ السَّعَادَةَ بِعَقْلٍ رَادِعٍ، يَسْتَقِيمُ بِهِ مَنْ زَلَّ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ يَسْتَهْدِي بِهِ مَنْ ضَلَّ. فَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « إِذَا اسْتَرْذَلَ اللهُ عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ العِلْمَ »[23].

فَيَنْبَغِي لِمَنْ زَهِدَ فِي العِلْمِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ رَاغِباً، وَلِمَنْ رَغِبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ طَالِباً، وَلِمَنْ طَلَبَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مُسْتَكْثِراً، وَلِمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ بِهِ عَامِلاً، وَلاَ يَطْلُبُ لِتَرْكِهِ احْتِجَاجاً، وَلاَ لِلتَّقْصِيرِ فِيهِ عُذْراً. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلاَ تَعْذِرَانِي فِي الإِسَاءَةِ إِنَّهُ شِرَارُ الرِّجَالِ مَنْ يُسِيءُ فَيُعْذَرُ

وَلاَ يُسَوِّفُ نَفْسَهُ بِالمَوَاعِيدِ الكَاذِبَةِ، وَيُمَنِّيهَا بِانْقِطَاعِ الأَشْغَالِ الْمُتَّصِلَةِ، فَإِنَّ لِكُلِّ وَقْتٍ شُغْلاً، وَلِكُلِّ زَمَانٍ عُذْراً. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

نَرُوحُ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لاَ تَنْقَضِي

تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

---

(23) رواه الشهاب القضاعي في مسنده بلفظ: « ما استرذلَ اللهُ عبداً إلاّ حظرَ عنه العلمَ والأدبَ » عن أبي هريرة ﷺ 3/ 225/ .

وَيَقْصِدُ طَلَبَ الْعِلْمِ وَاثِقاً بِتَيْسِيرِ اللهِّ، قَاصِداً وَجْهَ اللهِّ تَعَالَى بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ، وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ » [24].

إنّ الأخذ بالعلم، والتفوّق فيه، والطموح إلى أعلى درجات التخصّص فيه، وبخاصّة في هذا العصر هو سبيل الرقيّ والتقدّم، وهو ما لا يريده لنا أعداؤنا، ويتّخذون كلّ وسيلة لصدّنا عنه، وإشغالنا بتوافه الأمور.

وأظهر تلك التوافه أن يكون قصارى همّة الإنسان أن ينال الشهادة الدراسيّة مهما علت.. ليتفاخر بها بين الأقران، ويتصدّر بها في المجالس، ويتباهى بها بين الناس، ويتّخذها حرفةً للارتزاق.. ثمّ يتناسى ما تعلّم حتّى يكون أشبه بالعامّة، ولكنّ فرقه عنهم أنّه يتعالم، ويعترفون بجهلهم، إذ منحته تلك " الورقة " الجهل المركّب..

والعلم يمنح الإنسان سعة الصدر، ونفاذ البصيرة، والثبات على الحقّ، فلا ييأس ولا يحبط، ولا يتجَاوز حدّه ولا يَشتطّ، مهما أحاطت به الشدائد والمحن، والإنسان يحتاج دائماً إلى منشّطات الأمل، وكوابح الغرور، فإنّ يأسه من النجاح يقوده إلى السقوط، واغتراره بما عنده يمنعه التقدّم والسبقَ [25]. ولا شيء كالعلم يحقّق له ذلك..

---

(24) - أدب الدنيا والدين ص/ 53/ .

(25) . من كلام الشيخ محمّد الغزاليّ في بعض كتبه، بتصرّف وزيادة.

وينبغي أن نعلم أنّ ضمورَ العلم والمعرفة يقابله، ولا ينفكّ عنه: تضخّم الهوى وتحكّمه، وهو بلاء لا آخر له.. وعِلاجه: **تكثير المعارف** ذات النوعيّة المؤثّرة، حتّى يتّسع الأفق النفسيّ للإنسان **ويرقى، وتربية الضمير**، حتّى لا يستكين للشهوات ويذلّ، والأفراد والجماعات في ذلك سواء..

والتقصـير في العلم يعني التخلّف بكـلّ جوانبه ومناحيه، وأنواع العلل التي تنخر في جسد الأمّة وكيانها، ووخيم آثارها..

فهل لفئة راشدة، أو أمّة عاقلة: أن تختار هذا الطريق، وتوغل في مسالكه، وتقنع بنتائجه وآثاره.؟!

وأمّا الحكمة فهي أعظم نعمة يمنّ الله تعالى بها على الإنسان بعد نعمة النبوّة، يقول الله ﷻ: ﴿**يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴿٢٦٩﴾﴾ البقرة. ويقول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ** . ﴿١٢﴾﴾ لقمان.

" والحكمة لا يمكن خروجها عن معنيين هما: العلم، وفعل الصواب، فهي تنقسم إلى حكمة نظرية، وحكمة عملية، ولابدّ من اجتماعهما في السلوك الكامل " [26]. وأحسن ما جاء في تعريفها وأجمعه قول الإمام النوويّ رحمه الله: " **إنها العلمُ المتّصفُ بالإحكامِ، المشتمِلِ على المعرفةِ باللهِ تعالى، المصحوبِ بنفاذِ**

---

(26) . انظر: تفسير الإمام الرازي 2 / 347 / و 2 / 283 / في تعريف له جامع للحكمة، وانظر " المدخل إلى علم الدعوة " ص/ 17 / بتصرف وقد اعتمدت في هذا التقسيم عليه.

البصيرةِ، وتهذيبِ النفسِ والأخلاقِ، وتحقيقِ الحقّ والعملِ به، والصدّ عن اتِّباعِ الهوى الباطل، والحكيمُ مَن له ذلكَ " [27].

فقَد جمع هذا التعريف صحّةَ العلم، وَسَداد العمل، وسلامة القصد وانضِباط السلُوك، المعبّر عنه **بتهذيبِ النفسِ**، والبعد **عن الهوى**، وكلّ ذلك من لوازم الاستقَامة على منهج الحقّ.

ويمكن أن نفهم العلاقة بين العلم والحكمة: أنّ العلم بمثابة المادّة الخام، التي تتصرّف بها الحكمة، فتضعها مواضعها، وتحسن توظيفها، وتصنع منها ما ينفع الفرد والجماعة، وتقتبس من نورها في كلّ مناسبة.. فإن لم يقترن العلم بالحكمة التي تقوده وتضبطه، وتهديه وترشده، وتسمو به وتهذّبه كان وبالاً على صاحبه، وكارثة على مجتمعه.. وكان مثله كمن بيده مصباح، ولكنّه يغمض عينيه، ويخبط في الأرض على غير هدى..

وقد شاع عند العلماء والعامّة قولهم: " فلان علمه أكبر من عقله "، يقولونها عمّن لا يحسن توظيف علمه بحكمة، ولا يضعه مواضعه، والحكيم يغنيه قليل العلم عن كثيره.. لأنّه يحسن توظيف ما عنده من العلم، فلا تطغى فروع علمه وغرائبه على أصوله وثوابته، ولا متشابهه على محكمه.. فليست بضاعته من العلم خفيفة مزجاة، ليشبه حاله ما قيل: " **حفظتَ شيئاً وغابَت عنكَ أشياءُ** ".

---

(27) . انظر فيض القدير للمناوي 3/ 416 / .

3 ـ النافذة الثالثة: نافذة العمل:

يقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ التوبة.

* إنّ أخطر مشكلةٍ نعاني منها وهي مِن أخطر أسبابِ التخَلّف في عالمنا الإسلاميّ هي مشكلة الانفصام بين العلم والعمل، وبُعدِ الاتّصال بينهما في حياة أكثر الناس.. وقد حذّر الله تبارك وتعالى من ذلك فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ الصفّ. فما أشدّه مِن تقريع وعتاب، بلْ إنّه لتهديدٌ ووعيدٌ يُقلقُ الأتقياء أولي الألباب.؟!

وقال تعالى موبّخاً بني إسرائيل، وكلّ من سار سيرتهم: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ البقرة.

ولاشكّ أنّ الاختلاف بين القول والعمل على درجات، أخطرها التناقض الذي هو أشبه بانفصام الشخصيّة، وهو من صفات الكافرين والمنافقين، ولا يلتقي مع خلائق أهل الإيمان بحال.. وفوق ذلك درجات تختلف نسبتها، ويطال المقت كلّ درجة منها بحسبها.

وقد سمعت كلمة حقّ مأثورة، من بعض مشايخي رحمهم الله تعالى، لم أعثر عليها في شيء من الكتب: **" من لم يكن في زيادة من أمر دينه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فبطن الأرض خير له من ظهرها "**..

فكيفَ لنا أن نقصّر هَذه المسافة أَوْ نُلغيَها.؟! إنَّ الأمرَ يسيرٌ على من تحلّى بالصدق، وأسرجَ مراكبَ الجِدّ، وعقَدَ العزمَ، وأخلصَ القصدَ، وراقب اللهَ عندَ كلّ كَلمةٍ يقولُها، واستعان بالله تعالى في شَأنِه كلّه..

وإنّ بعدَ المسافةِ بين العلمِ والعَمل لا يَقتصِرُ أثره عَلَى الجانبِ الدينيّ فحَسب، وإنّما هو مشكلة أخلاقيّة كبرى، وزلزلة تُصيبُ بُنيةَ علاقاتنا الاجتماعيّة من قَواعدها، ليسَ على مُستوى العامّة بل الخاصّة.. فتختلّ الثقَة، ويشيعُ الشكُّ، ويُسيطِرُ سوءُ الظنّ، حتّى عَلى بَعض الأخيار، فيصبحونَ في حالةٍ منَ الإحباطِ، والعطالة عَنْ فعلِ الخَيرِ.. ثمّ تكون القطيعة والتدابر.. ومن ثمّ فقد جاء في الحديث الصحيح: (**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ ! مَا لَكَ.؟! أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ ؟! فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**) [28].

والقولُ بلا عمل بضاعةُ البطّالين، وحِلْيةُ الفارغين، ومُنية المغرورين، ومنه تَفوحُ رائحة الرضا عن النفسِ، **" وما ترك من الجهلِ شيئاً من رضي عن نفسِه "**، كما يقول السلف..

---

(28) - رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﷺ برقم/ 5305/ .

ومبدأُ الأمر أَنَّنا نَستهوِنُ القولَ بلا عَمل، ونَستروِحُ إلى حُبّ الحمدِ بما لم نَفعلْ، ونبتاعُ الوهمَ الكاذب، ونستمطر الماءَ من أخيلةِ السراب.. وهكذا حتّى تتباعد المسافة بين القول والعمل.. ويكون القول حجاباً لنا عن العمل.! فهلْ لنا أن نعقل فسادَ هذا الواقع، وما يترتّب عليه من نتائج وآثار.؟!

ومن عرف عظم المسئوليّة علم أنّ الأمر أكبر من توافق القول مع العمل.. إنّها حقوق الله التي تستغرق شئون العبد وأحواله، وقلبه وعقله، وكلّ جوارحه، وقد قال بعض الصالحين: " حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت إلاّ ولله عليك فيه حقٌّ جديد، وأمر أكيد، فكيف تقضي فيه حقّ غيره، وأنت لم تقض حقّ الله فيه.؟! ".

وقال أيضاً: " المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسِه شاكراً، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً ".

وفي كتب الأخلاق والرقائق شيء كثير من الأدبيّات الواعظة الزاجرة، عن اختلاف القول مع العمل، ممّا يدعو المؤمن إلى أن يكون حذراً من تمكّن هذا الداء من نفسه، ويجاهد نفسه ما استطاع للتخلّص منه:

يروى أنّ الإمام أبا حامد الغزاليّ رحمه الله بعدما طار صيتُه في الدعوة والتربية، وعظم تأثيره في قلوب الناس، خشي عليه أخوه أحمد، الذي عرف بالزهد بالدنيا، فوعظه بأبيات قال فيها:

أخذتَ بأعضادِهِم إذ وَنَوا وَخَلّفَكَ الجَهدُ إذ أسرَعُوا

وأصبحتَ تَهدي وَلا تَهتدِي وَتُسمِعُ وَعظاً وَلا تَسمَعُ

فيَا حَجَرَ الشَّحذِ حَتَّى مَتَى تَسُنُّ الحديدَ وَلا تَقطَعُ.؟!

ومنْ طريف ما قيل من المواعظ:

قال شيخ لمومسٍ: أنت سكرى كلّ يومٍ بصاحبٍ لك وجدُ

قالت : أنا كما قلت لكن أنت حقّاً كما للناس تبدو.؟!

وإنّ المفارقة بين القول والعمل، والغفلة عن ذلك، لهي أحوج أحوالنا إلى المحاسبة والاستغفار والتوبة:

أستغفر الله من قولٍ بلا عملٍ فقد نسبتُ به نسلاً لذي عقم

4 ـ النافذة الرابعة: نافذة التغيير:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴿١١﴾﴾ الرعد.

لقد تكفّل الله لنا بتغيير ما حولَنا إن غيّرنا ما بأنفسنا، ونحن نسعى في تغيير ما حولنا، ونهمل ما أمرنا بتغييره، وهي أنفسنا.!

وقد جاء في بعض الآثار: **" يا ابن آدم ! غيّر ما في نفسك، أغيّر لك العالم "**.

وإنّ الأصل الأوّل الذي يقوم عليه باعث التغيير هو عدم الرضا عن النفس، وعدم الرضا بالواقع، والرؤية الواضحة لآفاق السموّ وجمالها، ولذّة المجاهدة لبلوغها، وحلاوة العيش في رحابها.. والتغيير عمليّة رقيّ متواصل.. إنّه تجديد للحياة، وشحذ للهمّة.. كما أنّ القعود عن التغيير الإيجابيّ يعني أنّ الإنسان في تناقص وتآكل داخليّ، فإلى أيّ حدّ سينتهي به الأمر يا ترى.؟!

والقرآن الكريم يدعونا إلى التغيير الإيجابيّ مع الثبات على الحقّ إلى الممات، يقول الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴿١٠٢﴾﴾ آل عمران.

وإنّ ممّا يدعونا إلى التغيير الإيجابيّ أن نقف مع أنفسنا لحظة تأمّل صادق.. لنقارن بين بدايتنا وبين ما نحن عليه الآن ؛ فإن كنّا الآن أرقى إيماناً، وأحسن حالاً وسلوكاً فلنستبشر أنّ خطّنا البيانيّ صاعد، وأنّنا على الصراط سائرون.. وإن

كنّا على غير ذلك فلنعلم أنّ الخطر كبير، وسبيل التدارك بين أيدينا منذ هذه اللحظة، ولنعلم أنّ خطّ الانحراف بدأ قليلاً، وتسويف العمل البنّاء، والتغيير الجادّ هو الذي بلغ بنا إلى ما نحن عليه..

والتغيير المطلوب هو التغيير الذي يتوافق مع ما يريده الله تعالى من عباده، أَوْ يأذن به، وإلاّ فما أكثر الذين يُغَيّرون، ولكنّه تغيير سلبيّ، يدفعه حبّ السلامة وإيثار الدنيا، ويتوافق معَ أهوائهم، وينطلق منها، أو يمالئ أهواء الآخرين ويجاريها.! يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ النساء.

ولا يكتب الله عليهم ذلك إلاّ إذا أراد لهم أن يخرجهم من واقعٍ مزرٍ إلى ما فيه عزّهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة..

وقال بعض السلف: **" لو أمرَنا رسول الله ﷺ بقطع الأعناق لقطعناها "**.. لأنّهم يعلمون أنّهم لا يؤمرون بذلك إلاّ إذا تمحّض خيراً لهم، وبذا كانوا رجالاً حكماء ألبّاء، لم تَجُد الأيّام بمثلهم..

إنّ التغيير في حقيقته رقيّ نفسيّ وروحيّ وسلوكيّ، لا يقف عند حدّ، وإنّي لألحظ من حديث النبيّ ﷺ عن حافظ القرآن: (اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا) [29] ما يشير إلى أنّ من قرأ

([29]) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرٍو، وروى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ:

وارتقى في الدنيا، وغيّر القرآن الكريم مفاهيمه وسلوكه، قرأ فى الجنّة وارتقى، وحظي بفضل الله بأعلى المنازل والدرجات.. والجزاءُ من جنس العمل.

إنّ على المرء المخلص لربّه أن يتحمّل باقتدار مسئوليّة **التغيير** لنفسه، **ليكون أداة من أدوات التغيير فيمن حوله**.. فتغيير الفرد هو مبدأ التغيير الاجتماعيّ ومنطلقه، والذين يصدقون مع الله، ويخلصون لدين الله يرثونَ خيري الدنيا والآخرة، إن همْ صدقوا في التغيير وجدّوا.. ولن يستطيع أصحاب الحضارة الحديثة أن يقفوا في وجههم، مهما ملكوا من أسباب القوّة، وكانوا على قدر كبير من الذكاء، لأنّه ذكاء محكوم بالدنيا وشهواتها واهتماماتها، كذكاء البهيمةِ في تحصيل المرتع الهنيء، والمشرب العذب، والمنكح الذي لا يقف عندَ قيد.. ويعتمد على قوّة الناب والمخلب، وهم لا يلتفتون إلى الحياة الآخرة، ولا يرجون لله وقاراً، ولا يخطر ببالهم يوماً أنّهم ملاقو الله.. فماذا يرتجى منهم للإنسانيّة إلاّ الشقاء والعذاب.؟! ولن يكون سعيهم في الدنيا إلاّ إلى تباب.. وتلك سنّة الله في عباده، والعاقبة للمتّقين..

يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً، وقَالَ عنهما: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

5 ـ النافذة الخامسة: نافذة التميّز، أو مستوى النوع والكيف:

وإلى ذلك يشير قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ النحل. وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ العنكبوت.

وفي الحديث الشريف: (إنّ اللهَ عزّ وجَلّ يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحَدُكُم عَمَلاً أن يُتقِنَه) (30).

*ـ وإنّ مشكلتنا مع النوع والكيف مُستعصية.. إذ نحسّ بضرورة الارتقاء به، ولكنّنا لا نحرص على تجويد العمل، ولا نصدق في الالتزام بالنوع والكيف، وتستهوينا الكثرة.. كثرة الأعداد والأرقام، فنقف عندها، ونجري وراءها، ونغترّ بها.. ولا ننكر أنّ للكثرة أهمّيّتها ودلالتها، ولكن على أن لا تنزل عن مستوى من النوع الجيّد، وإلاّ كانت كلاًّ وعبئاً..

كلّنا نصلّي، ولكن ما نوع صلاتنا.؟! كلّنا يعمل، ولكن ما نوع أعمالنا.؟! وما وزنها.؟! ومَا ثمرتها.؟! كلّنا يتعلّم، ولكن ما نوع التعلّم الذي نتعلّمه.؟! ومَا ثمرته النفْسيّة والسلوكيّة.؟! **إنّ رجالات الإسلام بحقّ لا ينافسون إلاّ في المكارم، ولا تصدّر بيوتهم للناس إلاّ الأسوة الحسنة، وأمّا الدهماء فهي تشْغل**

---

(30) - أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط 2/ 408/ والبيهقي في شعب الإيمان 11/ 296/ عن عائشة رضي الله عنها.

نفسها بما ضمن لها من رزقٍ، تكاد تموت وراءه من الهمّ، ولا تكترث بما كلّفت من واجبات، وهذا من انطماس البصيرة، كما يقول ابن عطاء الله..

وإنّ القرآن الكريم **بمنهجه التربويّ الفذّ** يصنع أجيالاً متميّزة، لا ترضى لنفسها أن تكون من العامّة المنقادة، وإنّما ترقى إلى مصافّ النخبة المؤثّرَة، التي تصحب ربّها بمشاعر الرغبة والرهبة، والحبّ والشوق، والعبوديّة الخالصة، وتجعلُ من هذه الصحبَة أسلوب حياة، ومنهج سلوكٍ متميّز.. قد شرَح الله صَدرها بالإسلام، فهي على نور من ربّها.. وهي تتقدّم الصفوف بجدارة، لتكون المثل الأعلى للناس في كلّ ميدان..

وإنّ النوعيّة التي يحرص عليها الإسلام تتجلّى في كلّ جانب من جوانب الحياة.. وإنّ من معجزاته العظيمة أنّه يصنع من الخامات البشريّة السائبة نماذج فذّة من الرجال.. يتدرّج بهم في مراقي الكمال، ويكشف عن معادن ثمينة، كانت يغطّيها الركام.. إنّه مع الضعيف حتّى يقوى، ومع المظلومِ حتّى ينتصِرَ، ومع الفقير حتّى يستغني، ومع اليتيم حتّى يكبر، ومع الهائم حتّى يستقرّ.. وإنّه لا يرضى لأحد من عباد الله أن يكون كلاًّ أو هملاً، أو ضائعاً مستضعفاً..

وإنَّ أصحاب العقيدة والمبدأ هم أصحاب التميّز والتألّق، وإنّ منطقهم وسمتهم وحالهم غيرُ منطق طلاّب المنافع.. بدنيء همّتهم، وتفاهة اهتماماتهم..

ومن ثمّ فإنَّ المطلوب منّا أن نتميّز بكلّ شيء، وفي كلّ ميدان، ولكنّ أهمّ ميدان من ميادين التميّز التي تنتظرنا والأمّة تشكو فيه فقراً مدقعاً،وخواءً

مروّعاً: هو التميّز الأخلاقيّ، الذي فتح به أسلافنا العالم، وكانوا بحقّ أساتذة الدنيا، وأهمّ خلائق التميّز الأخلاقيّ: العفو والحلم، وسعة الصدر وحسن الخلق، والتحلّي بالمروءة، والرحمة بعباد الله والشفقة.. ونحن اليوم بكلّ أسف نعاني من أزمة أخلاقيّة عاصفة، من أخصّ علائقنا وأقربها إلى أوسعها وأعمقها.. فكيف لنا أن نجدّد فتح العالم بأخلاقنا، وأن نكون متميّزين بها، ويشار إلينا بالبنان.؟!

إنّ السلف من المؤمنين كانوا يمثّلون جيلاً من أحرار العقول، وكبَار القلوب، فعنْدما نصرهم الله ملأوا الدنيا حضارة ونضارة.. وهذه الخلوف مِن أبْنائهم المتنكّرون لدينهم هم كالأولاد العققة، الذين يأكلون ميراث آبائهم، ويتنكّرون لدينهم ومبادئهم، فكيف يقدّمون الإسلام للناس، وهم لم يزكّوا به نفْساً، ولم يرفعوا به رأساً.؟! وإنّ الله تعالى قد يعذُرُ أصحابَ عقول ساذجة، وفكر محدود، ولكنّه لا يعذر أصحاب هوىً غالب، ونيّة مغشوشة، وإصرار على الفساد، وترويج له.. وإنّ الذكاء في فهم الدنيا مع الغباء في فهم الآخرة يحوّلُ الإنسانَ إلى عبدٍ لشهَواته ، وقد لا يصحو من سكرته حتّى يحين أجله..

والتميّز الأخلاقيّ في هذه الأمّة عنوانه الكبير سيّدنا رسول الله ﷺ، بما كان عليه من شمائل كريمة، وأخلاق عظيمة، وقد خاطبه الله ﷻ وأثنى عليه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ القلم.

وقوله سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ . ﴿١٥٩﴾ ﴾ آل عمران.

وقد وصف الله عباده المتّقين بسموّ أخلاقيّ رفيع، إذ يعرضون عن جهل السفهاء وتطاولهم، فقالَ تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ الفرقان. كما حثّ من يساء إليه أن لا يجزي بالسيّئة السيّئةَ، بل يعفو ويغفر تأسّياً برسول الله ﷺ، ورغبة في مغفرة الله وفضله، فقالَ سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ النور.

ومن النماذج القدوة في ذلك ما روي عن الحسن ﷺ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَبِي ضَمْضَمٍ كَانَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ: " اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ ") [31].

(31) - رواه أبو داود في كتاب الأدب برقم / 4242/ عن قتادة من قوله.

6 ـ النافذة السادسة: نافذة التحدّي:

يَقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ آل عمران.

الصراع والمدافعة، والتحدّي بين الحقّ والباطل، والخير والشرّ سنّة الله في الحياة، وإلاّ يكن ذلك فهو الاستكانة للباطل والاستخذاء.. وما ينالُ المرءَ من ذلك أسوأ بكثير ممّا ينالُه بالصراع والتحدّي..

وإنّ أعظم ما نطالع فيه موقف النبيّ ﷺ عندما قال لعمّه أبي طالب: (**يا عمّ ! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري.. على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتّى يظهره الله، أو أهلك دونه**).

ولا ننسى موقف الصدّيق رضي الله عنه يوم الردّة، **فهو** من هذه النافذة، والمشكاة الفذّة، فقال كلمته المشهورة: " **والله لأقاتلنّهم، حتّى تنفرد سالفتي** ". وقوله رضي الله عنه: " **أينقُصُ الدينُ وأنا حيّ.؟! ".**

وهل ينسى موقف الفاروق رضي الله عنه يوم نقض المشركون صلح الحديبية فقال لأبي سفيان: " **والله لو لم أجد إلاّ الذرّ لجاهدتكم به** ".

وعلى ذلك توالت مواقف أئمّة الإسلام، وَسيرُ العلماء الأعلام، وما موقف أحمد بن حنبل رضي الله عنه يوم فتنة خلق القرآن عنّا ببعيد.!

ولسنا وحدنا الذين يقفون موقف التحدّي، بل إنّ أهل الباطل يتحدّون أهل الحقّ بباطلهم، فمن أحقّ بالتحدّي والثبات على المبدأ.؟!

وإنّ موقف التحدّي يعني أنّ المؤمن ثائر أبداً: على نفسه وما هي عليه من خلائق وعادات، فهو منها بالمرصاد ؛ آمر ناهٍ، مطالب محاسب، وهي منه في نصب ووصب، ومجاهدة دائبة.. وهو أوّل التحدّي، ثمّ على شيطانه الخفيّ، ووساوسه وتسويلاته.. وعلى شياطين الإنس الذين يحيطون به من كلّ جانب، ويفتنّون في إفساد دينه..

وينبغي أن يُعلمَ أنّ التحدّي غير ردّة الفعل، التي تتّسم بها أكثر مواقف الناس، فالتحدّي موقف إيجابيّ مدروس، ينطلق من المنهج، ويتّصف بالرسوخ والثبات، **أمّا ردّة الفعل** فهو موقف عاطفيّ آنيّ، كثيراً ما يتراجع ويتراخى، وقد يتشابه مع التحدّي من حيث المظهر، ولكنّه يختلف عنه من حيث الطبيعة والجوهر..

* وإنّ أوّل شروط التحدّي أن تكونَ الطليعة المؤمنة بعيدة كلّ البعد عن مظاهر الانبهار بالغَرب، وما يُقَاربها أو يتّصل بها..

ولقد عجزت الحضارة الغربيّة أن تقدّم للبشريّة ما يسعدها، وكانت بمادّيّتها وجشعها سبب شقاء الإنسان وتحطيم كيانه، وإنّ أصدق وصف للحضارة الغربيّة، أنّها **حضارة البغي والبغاء**.. فكيف نتطلّع إليها، ونعجب بها، ونلهث وراءها.؟ ونرتضي الانبهار بها.؟!

وإنّما كان الجهاد في سبيل الله ذروة التحدّي للباطل، لأنّه يعلي كلمة الحقّ، ويحرس العقيدة، ويصون الحرمات، ويحْمي العباد والبلاد.. وإنّ نيران

الجهادِ في سبيل الله أشبهُ بالمبِيدات للحشرات، تحفظُ الأموالَ، وتحمي الزرع والضرع..

وإنّ من سنن الله الاجتماعيّة أنّ الباطل يمتدّ في أيّ فراغٍ أمامهُ، وأهل الباطل يسرقون العقائد والفضائل، ويريدون فرض الزور والظلم على الناس.. فأين أهل الحقّ وحماته.؟! وما أصدق قول الشاعر:

لا يسلمُ الشرف الرفيعُ من الأذى حتّى يراقَ على جوانبه الدمُ

* عدّة التحدّي: إنّ عدّة التحدّي تتجلّى في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ الأنفال.

وعندما تسبق تلك النوافذُ هذه النافذةَ.. وتأتي هذه النافذةُ في سياقها الصحيح، ومسارها الطبَعيّ، فإنّ التحدّي يقوم على أصوله الراسخَة، فيضربُ جذورَه، ويؤتي ثماره..

أمّا إذا كان التحدّي باللسان، ولم يعضده بالعمل البرهان، فهو أشبه بتخاصم الصبيان منه بحركة العقلاء الألبّاء، وهو بذلك نوع منَ العنتريّات الفارغة الكاذبة، التي لا تنصر حقّاً، ولا تهزم باطلاً.. وهل ضاعت فلسطين وحقوق المسلمين إلاّ بمثلها.؟!

وما أبعد عنتريّات المدّعين عن حركات المُخلصين الصادقين.. وقديماً قال العرب في أمثَالهم: **" أوزعته سبّاً وأودى بالإبِلِ "**..

7 ـ النافذة السابعة: نافذة الصبر واليقين:

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ السجدة، فدلّت هذه الآية الكريمة على أنّ بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.. وفي حديْث خبّاب بن الأرَتّ ﷺ: (.. وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاّ اَللهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)[32].

وتأمّل رحمة الله وفضله على عباده ! في كلّ موقف من حياة أنبيائه ورسله وأصفيائه، **فإنّ ساعة العسرة ليوسف** عليه السلام وهو **في قاع الجبّ كانت الطريق إلى القمّة في هذه الدنيا، فما أعجب أقدار الله** تعالى.! وما أروع لطفه بأوليائه.!

إنّ الصبر ليس كما يفهمه بعض الناس سلوكاً سلبيّاً يعني الذلّ والخضوع.. وإنّما هو الثبات على الحقّ، مهما تكن الظروف التي يمرّ بها المؤمن شديدة قاسية، واتّخاذ أسباب القوّة، وإعداد العدّة لمواجهة مع الباطل، بعيدة الأمد، طويلة النفَس.. إنّه الإعداد النفسيّ الجيّد، الذي يسبق الإعداد المادّيّ، ويفوقه أهمّيّة وأثراً.. واليقين هو التعلّق الصادق بالله تعالى، وبأسمائه سبحانه وصفاته، والتسليم لله تعالى في أمره ونهيه وجميع أقداره، والنظر بعين البصيرة إلى ما وراء

---

(32) . رواه البخاريّ في كتاب المناقب برقم /3343/ وأبو داود في كتاب الجهاد برقم /2278/ وأحمد برقم /20148/.

اللحظة الحاضرة.. وإنّ الله تعالى مكراً بالمجرمين قد تذهلهم عنه لذّات عاجلة، أو انتصارات خادعة، أو تقلّب في البلاد مقرون بالسطوة والكبر.. ولكنّ المؤمن ينبغي أن لا يفارق قلبه لحظة واحدة أنّ العاقبة للمتّقين..

وإنّ المطلوب منْ أهل الحقّ أن لا يضطرب يقينهم، ويفتر حماسهم، بل يجب عليهم أن يصابروا الليالي الكالحة حتّى يدْركوا النصر الإلهيّ، وهو آت بلا ريب مهما طالت السنون.. وهل يعربد الجبّارون في الأرض إلاّ لفراغ الأفئدة منَ الإيمان واليقين.؟!

إنّ الله ظهِيرٌ للمؤمن إذا قاتل، فهو عندما يضرب تضرب معه قوى الأرض والسماء، إنّه غطَاءٌ لقدرة الله المنتقم من أعدائه، بعدما توقّحوا وتبجّحوا.. [33].

يقول أحمد شوقي:

إنّ الذي خلق الحقيقة علْقماً ... لم يخلِ من أهل الحقيقة جيلاً

إنّ التديّن قوّة وبصيْرة، وليس وهناً وغباء، إنّه خِلال كريمة، وإنسانيّة رفيعة.. وإنّ من السقُوط الذي ما بعده من سقوط أنْ تلين لمن يريد قهرك، ويحطّ قدرك، ويحقر دينك، ويحاول فتنتك، والوفاء للحقّ والمبدأ يفرض عليك الثبات عليه، والولاء لمن يواليه، والبراءة ممّن يعَاديه، واعتراض منْ يعترضه.. يقولُ أبو الطيّب:

---

(33) - من كلام الشيخ محمّد الغزاليّ في بعض كتبه، بتصرّف وزيادة.

ذلّ من يغبطُ الذليل بعيشٍ ربّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمَامُ
واحتمال الأذى ورؤية جانيْه غذاءٌ تَضوَى بهِ الأجسامُ

إنّ المشاعر المعتلّة دليل إيمان مزيّف، يحتاج إلى كثير من التصحيح والتمحيص والمداواة..

وإنّ الجيلَ الذي يعييه الحقّ، ويعجزه السباق، والصبر والثبات، يَطويه الردى، ويهال عليه التراب، ويجيء القدر بمن هم أنشط منه وأزكى.. إنّ الإيمان الحقّ بالله واليوْم الآخر يعصمُ من كلّ الدنايا ؛ يُقيّد الأيدي فلا تفتك، والرغبات فلا تجمح، والضمائر فلا تتعدّى وتجور..

والحقّ أنّ أكثرَ الناس يكادون يفقدون رشدهم مع سكرة الحياة ومطالبها، واللهاث وراء لذّاتها، ويكاد ذكر الآخرة أن يكون نسياً منسيّاً، كما أصبح ذكر الموت في نظر كثير من الناس وعظاً بَارداً.. فما أحوج الدعاة إلى الصبر واليقين، لمواجهة هذا الواقع وتغييره.! وما أقلّ حظّنا منهما .!

8 ـ النافذة الثامنة: نافذة الآثار:

يقول الله تعالى على لسانِ إبراهيم عليهِ الصلاة والسلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ الشعراء. لقد سأل ربّه ذلك لنصرة الحقّ، وتأييد الهدى، وليكون حظّه من التأسّي في القرون الآتية موصولاً..

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾ يس.

وإنّ آثار أقدام الصدق بعد الحياة، وآثار الأعمال الصالحة، وبركاتها وثمراتها.. هي آثار القدوات الذين يقولون في كلّ حال: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ الفرقان.

وفي الحديث الصحيح: (يَا بَنِي سَلِمَةَ ! دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ ! دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ !) [34].

وتأمّل هذه الحياة: كلّ الناس يدخل هذه الدنيا من باب، ويخرج منها من باب آخر.. وأكثر الناس يدخل ويخرج، فلا يُذكَرُ من دخل، ولا يُذكَرُ من خرج.. لأنّه لم يترك بعده ذكراً ولا أثراً..

---

(34) أي الزموا ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم. رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم / 1068/ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: خَلَتْ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ فَقَالَ ﷺ الحديث..

وإنّ آثار الأقدام بصمات خير على الإنسان والأشياء.. وأفضلها ما كان على الإنسان، هداية وإصلاحاً، وامتداداً للخير والإصلاح.. إنّه الملء الراشد لثوانِ الحياة ودقائقها، والضنّ بها أن تضيع سدى:

دقّات قلب المرء قائلة له: إنّ الحياة دقائق وثوانِ
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانِ

واعلم أنّه لابدّ من تركيز الجهود على إبراز القدوة لما لها من أثر كبير في نصرة الحقّ، ونجاح الدعوة، ووضع الأبعاد الحقيقيّة للفكرة، وتوارث المبدأ وقيم الحقّ حيّة نامية، من الآباء إلى الأبناء بصورتيها: الفكريّة والعمليّة، إنّها القوّة النفسيّة، والشجاعة المعنويّة، ولا يتقن فنّها إلاّ العظماء الكبار.. وفي ذلك يقول الرافعيّ الأديب: **" رؤية الكبار شجعاناً هي وحدها التي تخرج الصغار شجعاناً، ولا طريقة غير هذه في تربية شجاعة الأمّة "**. وقل مثل ذلك في كلّ خلق كريم..

والقدوة هم أهل الرسوخ والثبات على الحقّ، فلا يتقلّبون، ولا يتلوّنون، ولا يزيغون ولا يميلون، وفي ذلك يقول الشاعر:

تزول الجبال الراسيات وقلبه على العهد لا يلوي ولا يتغيّرُ

ويقول الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله تعالى: **" ينبغي للعاقل أنْ ينتهيَ إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصوّر للآدميّ صعود السموات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوّة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصّر في تحصيلها في**

حضيض، غير أنّه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن، والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل " [35].

ويقول الإمام ابن القيّم رحمه الله: **" النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلاّ بأعلاها، وأفضلها، وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار "** [36]. ويقول الشاعر:

دببتَ للمجد والساعون قد بلغوا جهدَ النفوس وألقَوا دونه الأزُرا
فكابَرُوا المجدَ حتّى ملّ أكثرُهم وعانقَ المجدَ مَن أوفى ومَن صَبرا
لا تحسب المجدَ تمراً أنتَ آكلُه لن تبلغ المجدَ حتّى تلعقَ الصبرا

فهل فكّرنا في آثار أعمالنا.؟! وأن نكون قدوة لمن بعدنا.؟! إنّ التفكيرَ في ذلك ـ مجرّد التفكير ـ لابدّ أنْ يرتدّ علينا وعلينا بالمراجعة والمحاسبة، والتغيير والتطوير..

وأرع سمعك وقلبك وصيّة الأستاذ عمر بهاء الدين الأميريّ رحمه الله ، لتترك من بعدك ذكرى طيّبة حسنة:

فخذ لك زادين: من سيرةٍ ومن عملٍ صالحٍ يُدّخر
وكُن في الطريقِ عَفيفَ الخُطا شَريفَ السماعِ كَريمَ النظَر
وكُن رَجلاً إن أتَوا بَعدَه يقُولونَ : مَرّ، وهذا الأثَر

---

(35) . صيد الخاطر ص/159/.
(36) . الفوائد ص/198/.

الخاتمة وَنَسألُ الله حُسنَها بِمَنِّه وَكَرَمِه

أيّها السائر في ركب الدعوة الميمون، موكب الهداية الربّانيّة.. تذكّر طفولتك الدعويّة كيف كانت، وكيف بدأت.؟! لقد كنت فطرة دعويّة نقيّة، تأبى الدنس، وتألف العزائم، وتأنف الترخّص.. واليوم تكاثرت في جسدك الجراح، وتناوشتك السهام من كلّ جانب.. فاحذَر أن تصيبَ منك مقتلاً.. فكم من قتيل هوى.! وكم من ساقط على قارعة الطريق دون الهدف.! فاحذر من صورة السير دون حقيقته، ومن عقبات وألهيات دون غايته.. فالعمر محدود، والنفس معدود، وعند الصباح يَطيبُ الكَرى [37]، ويحمد القوم السرى..

وإنّ ما مرّ بك أخي المؤمن في هذه الصفحات ألوان من أدب العبوديّة.. والتحقّق بأدب العبوديّة يجعَل المؤمن محلّ عناية الله تعَالى ورعايته، ومحبّته وولايته، كما جاء في الحديث القدسيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي

---

(37) - كناية عن الموت، فقد جاء في حديث ملكي السؤال في القبر قولهم للمؤمن: " نمْ كما تنام العروس.. ".

لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[38].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْداً نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ)[39].

فهل فَكّرنا أيّها الأحبّة ! في عمَل نعبد الله به، يكون أحبّ الوجوه إلى الله تعالى.؟! فنحسن بذلك إلى أنفسنا، ويكون لنا قدم صدقٍ راسخٍ في آخرتنا.. ولا أراه فيما أحسب إلاّ أن نكونَ نفّاعين لعباد الله تعالى.. من أيّ لون وجنسٍ كانوا، نوعاً من النفع المميّز، قد يختلف عن كلّ ما اعتاده الناس من أنواعه.. ولعلّكم تسألونني عنه.. وأنا بدوري أسألكم عنه، فليفكّر كلّ منّا فيه، وليكن مبدعاً معطاءً، ولا يكن اتّكاليّاً على غيره.. ثمّ أن نكونَ دفّاعين عن عباد الله كلّ أذىً ومكروه.. وابدأ بنفسك، ثمّ بمن تعول.. واعلم أن الأقربين أولى بالمعروف.. وأنّ أهمّ ما تدفع عن نفسك، وعمّن تعول تلك الفتن الهائجة المضلّة، التي يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع

---

(38) رواه البخاريّ في كتاب الرقاق برقم / 6021/ .

(39) رواه البخاريّ في كتاب التوحيد برقم / 6931/ ، ورواه الترمذيّ وزاد في روايته / 3085/ : (فَذَلِكَ قَوْلُ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾).

دينه بعرض من الدنيا.. فهَل لنا أن نبحث عن المخرجِ ممّا نحن فيه، ونهتدي إليه قبل فوات الأوان.؟! إنّا لنرجو من الله التوفيق إلى ذلك، والعون على ما يرضيه.. اللهمّ إنّك سألتَنا من أنفسنا ما لا نملكه إلاّ بك، اللهمّ فأعطنا منها ما يرضيك عنّا.

وإنّ خيرَ من تحقّق بأدب العبوديّة لله تعالى سيّدنا رسول الله ﷺ، فمَن أراد أن يتحقّق بذلك فليلزم ركاب السنّة، فهي مفتاح الرضَا والجنّة.. ومن أجلى ما تتجلّى فيه عبوديّة سيّدنا رسول الله ﷺ لله تعالى، الدعاء والتذلّل بين يدي الله سبحانه، وخير ما أختم به حديثي معكم **أيّها الأحبّة !** هذا الدعَاء النبويّ الجَامِع: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَيْلَةً حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ:

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ، تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ. اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَاناً وَيَقِيناً لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ، وَرَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي القَضَاءِ، وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ، وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي، وَإِنْ قَصُرَ رَأْيِي، وَضَعُفَ عَمَلِي، افْتَقَرْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ، فَأَسْأَلُكَ يَا قَاضِيَ الأُمُورِ، وَيَا شَافِيَ الصُّدُورِ، كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ الْبُحُورِ، أَنْ تُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، وَمِنْ دَعْوَةِ الثُّبُورِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقُبُورِ.

اللَّهُمَّ مَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي، وَلَمْ تَبْلُغْهُ نِيَّتِي، وَلَمْ تَبْلُغْهُ مَسْأَلَتِي، مِنْ خَيْرٍ وَعَدْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ خَيْرٍ أَنْتَ مُعْطِيهِ أَحَداً مِنْ عِبَادِكَ، فَإِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيهِ، وَأَسْأَلُكَهُ بِرَحْمَتِكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ ذَا الحَبْلِ الشَّدِيدِ، وَالأَمْرِ الرَّشِيدِ، أَسْأَلُكَ الأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ، وَالجَنَّةَ يَوْمَ الخُلُودِ، مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ، الرُّكَّعِ السُّجُودِ، الْمُوفِينَ بِالْعُهُودِ، إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ، غَيْرَ ضَالِّينَ وَلا مُضِلِّينَ، سِلْماً لأَوْلِيَائِكَ، وَعَدُوًّا لأَعْدَائِكَ، نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَحَبَّكَ، وَنُعَادِي بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ. اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الإِجَابَةُ، وَهَذَا الْجُهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكْلانُ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُوراً فِي قَلْبِي، ونُوراً فِي قَبْرِي، ونُوراً مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، ونُوراً مِنْ خَلْفِي، ونُوراً عَنْ يَمِينِي، ونُوراً عَنْ شِمَالِي، ونُوراً مِنْ فَوْقِي، ونُوراً مِنْ تَحْتِي، ونُوراً فِي سَمْعِي، ونُوراً فِي بَصَرِي، ونُوراً فِي شَعْرِي، ونُوراً فِي بَشَرِي، ونُوراً فِي لَحْمِي، ونُوراً فِي دَمِي، ونُوراً فِي عِظَامِي، اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُوراً، وَأَعْطِنِي نُوراً، وَاجْعَلْ لِي نُوراً. سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ الْعِزَّ وَقَالَ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ الْمَجْدَ وَتَكَرَّمَ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي لا يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إِلاّ لَهُ.. سُبْحَانَ ذِي الْفَضْلِ وَالنِّعَمِ، سُبْحَانَ ذِي الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ، سُبْحَانَ ذِي الجَلالِ وَالإِكْرَامِ)[40].

---

(40) رواه الترمذيّ في كتاب الدعوات برقم / 3341/ وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ مِثْلَ هَذَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى إِلاّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وصلّى الله على عبده ونبيّه سيّدنا محمّد، النبيّ الأمّيّ الطاهر الزكيّ، وعلى آله وصحبه وسلّم. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداءُ.....	5
هَـــــــــــــــــــــــــــــــذِهِ النوَافِذُ.....	7
* العلاقة بين هذه النوافذ:.....	10
كلمات مضيئة.....	11
مُقَدِّمَة.....	13
* **بين العبوديّة والعبادة:**.....	19
تعريف الإمام ابن تيمية للعبادة:.....	20

تعريف العبوديّة من الوجهة النفسيّة:..... 21
العبوديّة الحركيّة..... 21
نماذج من العبوديّة الحركيّة..... 22
قوام العبوديّة الحركيّة، وبم فضلنا السلف. ؟... 25
معادلات عرائس تبحث عن أكفائها..... 25
مقولات فاسدة يربّى عليها أبناؤنا..... 26
المعادلات الإيمانيّة لا تلتقي مع المقولات الفاسدة: 26
* من أهمّ أركان العبوديّة الحركيّة وخصائصها: 27
* من إبداع السلف في فهم العبوديّة الحركيّة 27
العبوديّة الحركيّة تفرض على المؤمن أموراً 33

الأخيار في كلّ جيل عامّة وخاصّة، وخاصّة الخاصّة 33
من صفات المؤمن الحقّ، والصفوة من الخلق: 34
أين أنت من أَحِبَّاءِ الله.؟!..... 36
1 ـ **النافذة الأولى: نافذة الإرادة وسموّ الهمّة:** 38
* حقيقة الإرادة وأقوال السلف فيها:..... 38
* شتّان بين إرادة الدنيا وإرادة الآخرة: 40
* مفرق الطريق:..... 41
عندما نذكر الإرادة وتفرّدها لابدّ أن نذكر ثمراتها 42
أثر الإرادة في التحوّل إلى سبيل الحقّ والهدى 43
* الإرادة الصادقة خير بابٍ للدخول على الله ﷻ 44

* فلننظر خيوط اهتماماتنا إلى ماذا هي مَشدودةٌ.؟ 46
* **درس بليغ من حياة النبيّ ﷺ مع زوجاته الطاهرات** 46
* تقارب الخطى، بل تطابقها:..... 48
* نماذج متألّقة:..... 49
كلّ الناس يبحث في هذه الدنيا عن موطئ قدم 50
* نماذج ومظاهر من اختلالات الإرادة: 51
من انتكاسات الإرادة الغفلة عن مسئوليّاتنا الخاصّة 51
وما أحوجنا إلى إثارة هذه التساؤلات..... 51
إنّ دعوة الحقّ تتطلّب تجريد الهمّة ومضاء العزيمة 52
صفات جامعة حدّدها الإمام البنّا 52

حقيقة الصراع بين الحقّ والباطل صراع إرادات 53
ماذا يريد الله لنا..... 54
أخوف ما يخيف المؤمن: حديث في صحيح مسلم 54
2 ـــ النافذة الثانية: نافذة العلم والحكمة:..... 56
كلام الإمام الماورديّ رحمه الله في بيان منزلة العلم 56
الأخذ بالعلم، والتفوّق فيه سبيل الرقيّ والتقدّم 58
والتقصير في العلم يعني التخلّف..... 58
الحكمة من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان 58
تعريف الحكمة..... 59
العلاقة بين العلم والحكمة 60
3 ـ النافذة الثالثة: نافذة العمل: 61

مشكلة الانفصام بين العلم والعمل 61
مواعظ زاجرة عن اختلاف القول مع العمل 63
4 ـ النافذة الرابعة: نافذة التغيير: 65
الباعث الأوّل على التغيير 65

التغيير الإيجابيّ وحقيقة التغيير 65
5 ـ نافذة التميّز، أو مستوى النوع والكيف: 68
* مشكلتنا مع النوع والكيف مُستعصية 68
التميّز الأخلاقيّ في هذه الأمّة 70
ومن النماذج القدوة في ذلك 71
6 ـ النافذة السادسة: نافذة التحدّي: 72
* من شروط التحدّي: 73
* عدّة التحدّي: 74
7 ـ النافذة السابعة: نافذة الصبر واليقين: 75
الصبر ليس سلوكاً سلبيّاً 75
8 ـــ النافذة الثامنة: نافذة الآثار:..... 78

آثار أقدام الصدق هي آثار القدوات..... 78
فهل فكّرنا في آثار أعمالنا.؟!..... 80
الخاتمة: ما مرّ بك ألوان من أدب العبوديّة.. 81
التحقّق بأدب العبوديّة يجعَل المؤمن محلّ عناية الله 81
سيّدنا رسول الله ﷺ خيرُ من تحقّق بأدب العبوديّة لله 83
دعَاء نبويّ جَامِع..... 83
المحتويات..... 87

.....